

لو تظهر الشمس

الاخراج الفنى

مراد نسيم

لو تظهر الشمس

مجموعة قصص قصيرة

حسين عيد مادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥

لو تظهر الشمس

« اغلق ابواب دارك جيدا ، فى ليالى الشتاء الباردة واستمتع بحكايات الدفء المخدرة .. فلن يزعجك - ابدا - همس الريح المزمجرة فى الخارج ! » .

حكمة من تراث مدينتنا

لقطة مرتعشة :

تلتحف سماء الشارع الرئيسى بالغيوم . تنتصب شجرتان عاريتان فوق الطوار . ترتعش فروعهما تهتز . تتعانق . تتشابك بعصبية .. ترتكز على جذع اضخمها منصة خضروات ، مكونة من قفصى دجاج ، خشبيين . تغطى سطحهما عدة جوالات من الخيش . يعلوهما كوم من الخص وعدد من الليمون الأصفر ، بينما تحتمى بجذع الشجرة شابة ترضع وليدها .

تكاد الرياح الباردة تجمد المرأة ، تعصف بالخضروات .. بلا منقذ ..

امنيـــة ام :

آه .. لو تظهر الشمس .

تحلم المراة . تزيد احتضانها لوليدها . تحت قدميها تنام الابنـــة الصغرى ، بينما ينهمك اخيها فى امتصـــاص اصبعه .. **((تركنا أبو الأطفال ، ومضى للجيش .. تركنا جوعى . لم يترك لنا مليما .. ملعون يوم معرفته .. ملعون)) !**

– بكم الليمونة ؟

ســـأل شخص حسن الهنـــدام . اسرعت بالرد : بأربعـــة قروش ..

– كنا نشترى الواحدة بقرش ..

سمعته .. **((كنا ..)) .. ((كنت مرتاحة البال حتى جرنى أبو العيال للشقاء .. وكنت اظنها الجنة))**

– آخذ الليمونة بثلاثة قروش ..

تهز رأسها موافقة .. **ليكن الاستفتاح على يدك .. والحمد لله على اى حال .. مطلبى تربية الأطفال ، لكن ما باليد قليل ..**

يمد لها يـــده بثمن خمس ليمونات . تأخـــذه : عندى خص ممتاز .. تشترى .

– بكم الواحـــدة ؟

– بثلاثة صـــاغ ..

يمد يده للخص . يتفحصه .. **((حاولت مع المعلم عرفـــان ان اختار الخص السليم . جذب يدى بعيدا)) .**

قال ضاحكا : « كل حاجة لى تبقى ملكك .. لو وافقت !! اجبته ساخرة .. البحر اقرب لك .. « عرانى بعينيه . لم ارضخ » .

ـ آخذ الواحدة بقرشين ..

يتسلل البرد الى الأعماق . يقشعر البدن : الاثنين بخمسة صاغ ..

يهز رأسه موافقا .. **« آه .. لو تظهر الشمس . تصبح لى أنيسا .. تدفىء امراة وحيدة مع اطفالها الثلاثة .. هرب الزوج للجيش . نسينى الأقارب . حتى الشمس تبخل على بدفئها .. هل كتب على ان اعانى ليل نهار ؟! »**

ينتقى الرجل اربع خصات . يعطى المراة الثمن . تضع البريزة فى جيبها : الحمد لله ... عندى الخص يوميا طازج .. واسعارى معقولة ..

ابتعد الرجل .. أكملت : وعندى ثلاث أطفال بأربيهم ..

تستند لجذع الشجرة العارية .. السيارات تقطع الشارع مسرعة . المارة يمضون على عجل . ترفع عينيها للسماء .. ما زال الكل ملفوفا فى طبقات الكفن الأبيض المشرب ببعض السواد ، والبرد ينخر عظامها بقسوة . **ثمة يقين هادىء يهف عليها كالهام غامض : حتى دفء الشمس المجانى ايضا .. صار بعيد المنال ..**

مجلة الهلال ـ يولية ١٩٧٨

حادث سعيد

((اعتذرت النجمة المشهورة ((س)) عن اكثر من عمل فنى ، لعد شهور قادمة .. لكن مندوبنـا ، اكتشف السبب .. انهـا تنتظر حادثا سعيدا !))

نص ما نشر بالصفحة الفنية بجريدة يومية

آلام المخـاض :

تحـاول احســان أن تنقلب على جانبها الأيمن . تفشــل محاولتها . يعاودها الألم . تعض ملاءة السرير . تكتم صرخـة ألم هائلة . تتحسس يداها تقوس بطنها فى رجـاء .. متى ينتهى الألم ؟ ، يقترب الزوج منها بقلق : سنذهب الآن للمستشفى .. لا تخـافى ..

تتشرب عيناها آلاف الأشعة الضوئية ، المنبعثة من مصباح الحجرة اليتيم ، كمن تستغيث . **قـالت امهـا يوما : كنـا فى القرية .. نلد فى الصباح .. ثم ننهض لنقوم بكل اعبـاء البيت .**

تتشبث نظراتها بالزوج . يتحرك نحو النافذة بعصبية .

يهمس كمن يحدث نفسه : سيصطاد اخى سيارة اجرة لنذهب بهـا ..

تتابـع ظهـره العريض .. « **اعـرف طبـاعك يا زوجى الحبيب .. متاعبنا المـالية تزعجك .. لا أنسى ما قلته فى لحظة غضب : اذا كان الحمل نتيجة اهمالك ونسيانك .. فمن سيحتمل النتيجة ؟ .. مرتبانا بالكاد يكفيان مصـاريف اعاشتنا وحضانة الولدين .. ولا مزيد** » !!

يجلس الزوج على حافة السرير . يمسـك يدها : تحملى قليلا يا احسان .. تحملى ..

تهز رأسـها . تطمئنه .. « **قـالت زميلتهـا بالعمـل : ساعمـل جمعيـة بمائـة جنيـه .. على عشرين شـهرا .. قسطها الشهرى خمسة جنيهات .. يمكنك ان تقبضيها فى شهر ولادتك** » .

تقبض على يده كالمنقذ . تغمض عينيهـا .. **قـالت نفس الزميلة ، عنـدما عرفت بامر محـاولاتها المتكررة ، للتخلص من الجنين : حرام ما تفعلين .. هـذا لا يبيحه شرع ولا دين .. فكرى جيدا .. خلقنا الله .. لنواجه حياتنا بشجاعة ..**

يومض من الأعماق الم قاهر .. تسح الدموع بهدوء . تفتح عينيها . يبدو الزوج بعيدا .. بعيدا من خلال ضباب الدموع .. **فى مكاننا المفضـل على النيل ايام الخطوبة . سبحت عيناى فى عينيـه . هبت نسمة منعشـة .. قال بانفعـال : قلبى وليد معرفتك .. اصبح لحياتى الآن معنى ..**

تغمض عينيها . تختزن الألم فى صمت .. **تاهت كلمـات الحب الرقيقة .. واصبحت تربية الولدين هى المعنى الوحيد ..**

ـ احســان .. سأترك اختيار اســم المولود .. فمــاذا ترغبين ؟ !

تمط الزوجــة شفتيها . تحــاول أن ترســم ابتسامة .. **ولد .. أو بنت .. الكل ســـواء .. والمفروض أن نعطى دار الحضــانة فرصة تسميته .. فهى تبدأ رعايتــه منذ الشــهر الثالث .. عندما تجبرنى الظروف أن أعود للعمل ..**

يندفع الزوج فجــأة للنافذة : أسمع صوت توقف سيارة .. **لعلها ..**

ينظر منها . يهز رأسه . يندفع الى الدولاب . يتنــاول بالطو الزوجة القديم : هيا بنا .. جاءت الســيارة الأجرة .. سنذهب للمستشفى ..

تنهض الزوجة ببطء . تحس أنها تكاد تقع من ارتفــاع شاهق . تتحامل . تضع البالطو على اكتافها . تمشى . تتبع الزوج . تبتهل بخشوع : ليرحمنا الله ! ..

الأهرام ـ ١٨ ديسمبر ١٩٨٠

في المـــرآة

بضاعتي لا تكسد أبدا .. من منا لا يرغب
في الاعجاب بشخصه الذي تكشفه المرآة ؟ »
من اقوال بائع مرايا

الوقـــوف :

يصطف طابور طويل . يتشكل من نوعيات شتى . يتعرج امام مصعد المبنى الضخم . كل ينتظر دوره . المصعدان الآخران معطلان . يمتد بجوار المصعد حائط جانبي . تغطى ربعه السفلى مرآة . تمتد حتى مدخل العمارة ..

تلفت الانتباه سيدة ، بدقات حذائها ذي الكعب العـــالي . ينتشر عطرها الغالي كنسمة لكنها لا تنتظر في الصف . تقف قرب باب المصعد باستعلاء . يتحرك أكثر من شخص للأمام . يسدون اي ثغرات قد توجد بينهم يهمس شخص يقف بقرب الســـيدة الجريئة : يا هانم .. الطابور ..

لا تعيره السيدة اي التفات ، كأنها لم تسمعه . يتحفز الرجل ازاء هـــذا التجاهـــل . يلف الواقفين تســـاؤل صامت : لمـــاذا تتصرف هذه السيدة هكذا ؟ .. وهل ستكسر حاجز النظام ؟ ..

تلتفت فتاة — ربما لا تتجاوز السادسة عشر — لوهلة للسيدة . يضايقها أن تقطع عناقها مع صورتها بالمرآة .. بالنسبة لى ، يظهر العمر جليا على ترهل جسمها .. « تنظر للمرآة ، تتملى صورتها باعجاب ، تسوى شعرها . تبتسم » .. لم اكن أظن لى هذا الجسد الفائر .. يكاد ساقى ، تثوران ليمزقا البنطال الضيق .. « تعدل ياقة بلوزتها » هذا الصدر الناهد .. مدفعاه ينصبان فخا خبيثا لكل عين .. « تنزلق عيناها على المرآة » هذا الجسد الرائع .. ويقولون فينوس .. الحمقى لم يرونى تعود يدها تحتضن شعرها بدلال . لا تعير ما حولها ادنى اهتمام ، يكفيها صورتها ..

الاستعداد :

يهبط المصعد . يفتح بابه . يتوافد الخارجون منه . يضيق مدخله بالازدحام . تتخطى السيدة الخارجين بسهوله . تحاول الاقتحام . أن تكون أول الداخلين . يعترضها نفس الرجل بهدوء : يا هانم فى طابور ..

تستمر المراة فى حركتها الواثقة ، كأنها لم تسمعه . أو كأنه حشرة غير جديرة بالاهتمام .. يقفز الرجل . يحجب مدخل المصعد مانعا الدخول : يا عالم .. فى نظام ..

ينتهى خروج الهابطين . يعلو صراخ رجل فى مؤخرة الطابور : يا اخوانى .. وراءنا مواعيد واعمال ..

يتدخل عامل المصعد : الدخول بالدور ..

ينفجر رجل المقدمة عندما يرى السيدة تحاول الركوب : نظامنا لا يعجب الهانم .. كأنها من عالم آخر .

تمنح الفتاة صورتها بالمرآة بسمة اعجاب .. « جسـدى متميز وسط الزحام .. له وجود خاص .. أشعر بنظرات الواقف ورائى ــ تأكلنى » .. تمتد يدها . تسوى شعرها ثانية .. يحسم عامل المصعد الموقف : قفى فى دورك .. يا مدام ..

تتحرك السيدة بتعال . تصل لمؤخرة الطابور . لا تنتظم فى الصف . بل تنتصب خارجه كأن وقوفها بالصف شيء لا يليق .. أو كأن الآخرين مجرد رعايا مجهولى الأصل فى مملكتها الوهمية ..

التفاتة وله اخيرة ، من الفتاة لصورتها بالمرآة .. بينما يمشى طابور الواقفين ببطء للأمام كأنهم يشيعون فقيدا ما فى جنـاز حزين ..

« المرآة كالحياة .. ماذا تنتظر منها ؟
انها تعكس ــ بامانة ــ ما نقدمه لها ! »

من مأثورات سيدة عجوز

مجلة الهلال ــ سبتمبر ١٩٧٩

الناس يحبون عبوده

الناس يحبون عبوده ..

عبوده ولد صغير . يمشى بخطوات عسكرية صارمة ، تنتزع اعجاب أهل البيت واطفال الحارة يده اليمنى تندفع للأمام مع الساق اليسرى الممدودة للخلف ، واليد الأخرى مع الساق اليمنى فى حركة منتظمة كبندول الساعة .. لو رأيت مشيته ، وذلك التصميم البرىء الذى ينطق به وجهه الساذج .. لتمنيت للوهلة الأولى أن تسير معه ــ بنفس الخطوة ــ على انغام مارشات عسكرية حماسية ، وسط جماهير تتجاوب معك ، وتهتف لك ..

الحقيقة ان الناس يحبون عبوده ...

ويوم الاثنين عاد من المدرسة مبكرا . تعلق بأمه فى شغف . هتف بحرارة : ماما .. ماما ..

عينا الأم تملا عينيه فى استفسار حزين . والولد يهمس : ماما .. انا طالع على الميدان .. عبودة فى السادسة من عمره . راسه ضخم . جسده نحيل . عيناه واسعتان جسورتان . والى أمه يقدم الخبر الغريب .. نظراتها ساهمة ، بلا وميض . ومنذ اسبوع كان أبوه فى نفس المكان ببزته العسكرية ذات الأذرار الصفراء ، يهتف : اراكم بخير عندما أعود باذن الله ..

البيت هادىء . شمس النهار تتسلل من النافذة الى وجه الأب البرونزى . والجدة على الكنبة تدعو : ربنا يرجعك بالسلامة.

عينا الأب نار مشتعلة ، خمدت فجأة ، ثم عادت اكثر توهجا وهويحتضن عبوده : ابننا امانة .. راعيه .. كلميه عنى .. احكى له عن أبوه ..

عبوده يتشبث بيديه الصغيرتين فى عنق ابيه الضخم ، ويهمس برجاء : بابا .. بابا .. نفسى أروح الميدان .

أنزله الأب امامه . جلس قبالته القرفصاء وبرة الميدان العسكرية تخلب لب الصغير .. تاهت يد الأب فى شعر الصغير : يا ابنى الحرب للرجال .. وغدا تكبر ..

هز راسه . كانت الأم موقنة انه يتخيل عبوده شابا يافعا يرتدى زى الضباط الأنيق . أمل عمره . لطالما حدثها عنه .

عاد يردد : غدا تكبر ..

دمعة فاضت بعين الأم اخفتها بمهارة . حاولت الابتسام : خذ بالك من نفسك .. وربنا معك ..

لم تعد تجدى الكلمات ، فجندى المدفعية قد رحل ، ولم يبق الا الذكريات ..

انتبهت الأم وعبوده يجذب جلبابها : ماما .. ماما ..

صمتا عبودة . الهرج يسود الحارة ، بل الحى . صفارة الغارة تعوى كذئب شارد . طلقات مدافع تحطم سكينة النهار . اشتات أحاديث غريبة تطرق سمعها .. ادارت المذياع .. فجاة دهمتها حقيقة مرة .. بدات الحرب .. زوجها .. رحيله

المفاجىء .. زوجها الحبيب يدور فى رحاها القاسى .. لا فكاك ، ولا مفر .. ترى ماذا يفعل الآن ؟ .. اللهم لا تصبه بمكروه .. حافظ عليه ..

عبودة يعاود جذبها من جديد ، وقد وضع كتبه جانبا : ماما .. نفسى أروح الميدان .. بابا طلع على الميدان .. وأنا طالع على الميدان ..

الدمعة لا تملك النكوص والانزواء . والولد أعلن رغبته . وببراءة يطلب نصيبه فى الحرب .. صمتا ولدى . الى رفاقك الصغار انطلق . فمازلت صغيرا — أيهـا الحبيب — على لعبـة الكبار .. حركته نحو الباب .. بنبرات كسيرة قالت : العب مع أصحابك فى الحارة .

عبودة حائر . تفكيره لا يسعفه ، خرج الى الحارة حزينا .. رأى الأطفال رابضين بجوار مذياع المقهى سعداء . يهللون .. المـارة يتجمعون ، والمذيع يعلن بيانا عسكريا : اسقطنا ..

عيون الناس جذوة متقدة بانفعال واحد غريب . والقلوب يدغدغها خدر مشترك . والمشاعر تنساب بشكل جديد ، غير معهود .. طلقة مدفع تبدد الهدوء .. فترتفع الأعين الى السماء ببلاهـة كمن ينشد المدد .. بينمـا الجيران يمـلاون النوافـذ والشرفات .. والجماهير عادت تدب فى الطرقات على عجل ، كأسرى انطلقوا فجأة بلا هدف .. وشمس يونيو بعنـاد تلهب العباد ..

عبودة يرقب ما يجرى فى صمت . يدعوه الأطفال ليكونوا جيشا . يصطفون فى طابور طويل ، متعرج . هو دليله كالعادة ..

تحركوا .. المشية منتظمة على نغمات الموسيقى العسكرية التى يصدرها المذياع .. انهم يلفون الحارة ، والجيران يشيرون لهم بانفعال ويضحكون بعصبية .. وعجوز ينطلق صوتها كمن تزغرد : ربنا ينصرنا ..

عبودة صارم فى مشيته ، لا يلتفت يمينا أو يسارا . عابس لا يضحك . منفعل . حائر . غير مرتاح .. خرج من اللعبة . التف حوله الأطفال يستفسرون .. وكعادة الكبار عندما يتكلمون ، وبصرامة أبيه التى أحبها ، اعلن للأطفال بفخر : تعرفوا ان بابا طلع على الميدان .. بابا راح الميدان ..

لحظة صمت . أزيز طائرة . طلقات مدفع . صوت مذيع منفعل . مناقشات سريعة متفائلة .. وفى عيون الأطفال تساؤل ملح . كانوا يعرفون الميدان .. فالحرب فى ميدان القتال . ولكن ما هى الحرب ؟ وما تعنيه .. لا يدرون .

عبودة يكمل بنبرات خطيرة : وانا .. انا طالع على الميدان .

الأطفال مبهورون . يزدادون التفافا حوله . المذيع يعلن بيانا، يقابل بعاصفة من التهليل . وصــغير يسأل خائفا ، وهو يحك أرنبة انفه : هتروح الميدان ؟

ولا حتى مجرد نظرة . عينا عبودة تصطدمان بالسماء اللامعة، والشمس تلهب الرؤوس الصغيرة ، وعبودة يرجو لو يعود اباه ليأخذه معه .

يعود يعلن فى تصميم : انا طالع على الميدان .

نادت أم طفليها ، فسرت العدوى الى بقية الأمهات ، كأن فى الحارة عدوا خفيا يتربص بهم .. أصبح عبودة وحيدا .. مشى ببطء كعجوز فى السبعين .. أحس فى الجو بشىء غريب . شىء ما تغير فى الناس .. الجالسون على المقهى ، عيونهم ليست خاوية. بها بريق عجيب .. عم ابراهيم بائع الجرائد ، برد الشاى امامه وهولاء عنه بالانصات للمذياع .. النادل توقف عن الحركة وتلبية الطلبات .. لحظات انتباه مفاجئة اجتاحت الكل ، شدتهم رغما عنهم الى ما يجرى ..

مناقشات جانبية فى كل مكان . نفس البريق فى العيون . وتكرار — غير ملول — لنفس البيانات المذاعة .. شىء ما يحدث .. شىء ما احدث هذا الشرخ المفاجىء فى حياة الناس اليومية العادية .. هى الحرب .. لقد بدات الحرب اذن ..

انزعج عبودة لهذا الخاطر . كان يصدمه حقيقة للمرة الأولى ، فجرى مسرعا الى البيت . وسط انفاسه المبهورة ، سمع جدته تقول : ربنا يستر .. ويرجعك بالسلامة يا أبو عبودة .

جلس بجوارها على نفس الكنبة التى اعتادت الجلوس عليها منذ مدة طويلة مضت قال **مازوما** : كلمينى عن الحرب .. **هه** ؟

عاد يلح : بابا بيحارب على مدفعه ؟

احتضنته الجدة تحت ابطها وهى تخنق عبرة : ربنا يرجعه بالسلامة .

يعود الصغير يعلن فى تصميم مقلدا أباه : انا طالع على الميدان .. انا طالع على الميدان .

العجوز تراضيه : يا ابنى ..

غيرت رايها . نادت امه : تعالى .. المحروس بيقلد ابوه .. الحرب قامت وربنا يستر ..

وتستطرد فى حسرة : حتى افكار الأولاد تغيرت .

اخذته الأم من يده : بتضايقها .. حرام عليك

ابنك يقول لك يا بطل .. الأغنية ملأ الاسماع . لكن عبودة غير مرتاح . انه قلق . متوتر . وضعت له الأم طعاما ليأكل . اختطف لقمـة .. ابدا .. انه لا يريد أن يأكل .. انه يفكر فى ابيه .. فقط لو امكنه أن يشهد هـذه اللحظات معه .. فقط لو يذهب الى الميدان .. اذن لارتاح .

ساعات هذا النهار ساعات رهيبـة . بطيئة . ثقيلة .. فالبيانات تتوالى ، والناس مأخوذون ، مشدودون .. ثم حل الليل ونداء واحد يتكرر فى كل الارجاء : اطفىء النور .. اطفىء النور .

عبودة على السرير يلتصق بأمه وهى تحدث جدته : سمعنا أن العيش اختفى من السوق ..

قاطعتها الجدة مندهشة : والعيش الكبير ..

ردت الأم : صبرك يا اماه .. الناس جريت على الأفران . جريت معهم .. كنا مجانين .. تعرفى انى اشتريت بريال عيش .

شدت الأم على كتف الصغير بحنان وبأسى اكملت : كانت اشاعة .. والعيش كثير فى السوق .

عبودة لا يحب الظلام ، وفكرة واحدة تمسك بخناقه . تعايشه . تقلقه . ان يكون مع أبيه فى الميدان .. وعندما تمددت امه بجواره على السرير . اغمض عينيه . يده فى يدها . كانت تحملق فى الظلام ، وكان يخشى الظلام .. تذكر الطوابير الكثيرة التى كان دليلا لها فى المدرسة . خاصة أمام الزوار والضيوف ، واعجابهم الشديد بمشيته العسكرية الصارمة ، التى لا تتناسب مع سنه ..

ثم تخيل انه يمشى هذه المرة مع أبيه ، متزاملين كالرجل وظله ، خطوة بخطوة ، اليد مع اليد . والساق مع الساق .. كم كان سعيدا .. فلم يكن يدرى ان قنبلة غادرة نتيجة قصف جوى قد انفجرت فى مدفع ابيه .. فقتلته .. فى ذات اللحظة .. التى تنبهت فيها الأم ، لصوت عبودة النائم .. وهو يشد على يدها ، وسط الظلام المتوتر ، الدامس .. كان يهتف باصرار : ماما .. ماما .. انا طالع على الميدان .

ولـد وشـجرة

« اذا أثار صغير فيـك الدهشـة ..
بسؤال أو بهمسة .. فانت حى ، تعيش »
حكمة مصرية قديمة

١

يجـذب الولد الصغير امـه نحو النافـذة : أترين هـذه الشجرة .. المحصـورة بين المساكن ، وبين قضـبان السـكك الحديدية ..

هزت الأم رأسها بالايجاب .

يتساءل ببراءة : لمـاذا هى وحيدة ؟ !

لم تجبه الأم فورا .. لكنها لم تنس السؤال ..

٢

يندمج مدرس العلوم فى الشرح بحماس : للنبات أشـكال مختلفة .. منها ما هو صغير الحجم .. كالخضروات .. ومنهـا ما هو ضخم ، عملاق ، كالغابات .. حيث تنمو الأشجار متجاورة، متلاصقة .. تتشابك أغصانها ..

يقاطعه نفس الصغير : لمـاذا تنمو الأشجار متجاورة ؟ !

يفتر حماس المدرس . يحملق بالطفل مفكرا .. كيف يبسط له الظروف الطبيعية المتوفرة بالغابات ، التى تهىء فرصـة النمو والحياة للنبات والحيوان معا ؟

يختصر الطريق : انها حكمة الله يا ولدى ..

لم يعلق التلميذ بشىء .. لكنه لم ينس السؤال ..

٣

تمدد تحت شجرة ضخمة . انبسطت خضرة الاعشاب على مرمى البصر .. نهض ، يستكشف المكان رأى شجرة ـ كالقريبة من بيتهم ـ تجـاورها اشجار أخرى .. تغطى سـيقانهم نباتات متسلقـة لا يعرفهـا انصـت لخرير ميـاه قريب .. لكن اين الشمس ؟ .. هل ضاع الطريق من قدميه ، فسقط فى تيه الغابة وحيدا ، دون انيس ؟ ! ..

حاول أن يصرخ طالبا النجدة ، لكن صـوته لم يسعفه .. زاغ بصره فى مختلف الأرجاء .. هل حكم عليه ان يتوه دون ان تدرى امه ؟ !

تزحف يد الطفل اليمنى على السرير ، متحسسـة ، متأكدة من وجود امه نائمـة بجواره . تتشبث بجسـدها كالمنقذ .. **ثم يمضى ـ مطمئن البال ـ يتجول فى الغابة متمهلا .. يحـاول ان يتعرف على عالمها السحرى ، الطبيعى ..**

عبودة ليس صغيرا ..

١

استيقظ عبودة من نومه مبكرا ، على غير العادة . فتح عينيه .. كانت امه الى جواره تغط فى نوم عميق .. تسلل بهدوء متمهلا ، خشية ايقاظها .. غادر السرير .. رأى سرير الجدة خاليا ايقن انها صحت كعادتها قبل شروق الشمس .

خرج الى الصالة .. كان الهدوء مسيطرا ، لا يقطعه سوى همسات الجدة وابتهالاتها فى ركنها المعهود ، على سجادة الصلاة . استرخى على الكنبة بجوار النافذة المغلقة . مد يده فتحها . شاهد كلب الجيران يمشى متكاسلا ، بعد ليلة سهر .. كم سهر معه وانس لنباحه فى ليالى الوحدة الطويلة ، المزعجة .. ثم مد بصره الى الناصية ، فرأى بائع الجرائد يفترش الأرض ، وحوله جمع حاشد من الناس . يتكالبون على شراء الصحف فساعات يومى السبت والأحد الماضيين ، الحافلة . مازالت تمسك بخناق الجميع . تسيطر عليهم ، تشدهم اثارتها ، وتلهب مشاعرهم ، فهم يأملون أن تكون الجرائد واحة للراحة وموطنا للخلاص ، خلال بحثهم المضنى عن المعرفة الكاملة فى زحمة الأحداث المتدفقة المتوالية ..

– صباح الخير يا عبودة ..

انها جدته تصبح عليه بعد أن انهت صلاتها .. رد تلقائيا : صباح النصر يا ستى ..

رفعت الجدة يديها للسماء داعية : ربنا ينصرنا يا بنى .. ربنا ينصرنا ..

ولا يدرى عبودة لم فاجأته صورة أبيه منذ ست سنوات ، بيزته العسكرية ، وبأزرارها اللامعة الصفراء ، وهو يودعهم قائلا : أنا طالع على الميدان .

وذهب الوالد بلا عـودة ، وخلف فى البيت حزنـا مقيما ، وذكريات مرة ، كان يؤرقها الصغير عندما يهمس لأمه : احكى لى عن بابا .. كلمينى عنه ..

فتتندى عينيها بالدموع ، وتمتد يداهـا اليه تجذبـه الى أحضانها بحنان كبيرة « أبوك مات شهيد » تعلم من ألمها معنى العذاب . ومن صبرها معنى الصمت ، فحاول أن يخفف عنها ، بان يكون أكبر من عمره الصغير ، فابتلع أسئلته على مضض ، خشية ايلامها ، وكان يسعده أن يرقب جدته وهى تحنو عليه ، وتمتدح حسن سلوكه بقولها : طبعا .. لازم تكون كبير .. ما أنت رجل البيت ..

واليوم وهو مطالب أيضا أن يتصرف تصرف الرجال ..

وكان فى نيته ما يؤكد ذلك ..

٢

خرج عبودة من بيته . هبت نسمة باردة . توقف . تنفس بعمق ، ثم عاود المسير .. الدكاكين بدأت تفتح أبوابها ، والمـارة يتدفقون فى كل اتجاه مسرعين ، ماضيين الى أعمالهم أو ساعين

الى ارزاقهم .. فالأرض تنبض بالحياة .. بينما المقهى محتشد بالزبائن المشدودين الى المذياع الذى يردد الاناشيد الوطنية وآخر الأنباء .. لكن الجو رغم هذا مختلف ، اليوم ليس عاديا ، ليس فيه رخاوة الأيام الماضية ، كأنه اندمج مع البشر ليشكل ملامح مولود جديد ، فالبشر ــ المارة ملتصقين بالراديوهات الصغيرة التى يحملونها معهم ، كأن كل فرد منهم قد تحول ــ بقدرة قادر ــ الى اذن صغير ، جبارة . كل منهم اذن مستقلة بذاتها ثم يجتمع شمل هذه الاذان المفردة ، لتشكل اذنا كبيرة ضخمة ، تنصت . تسمع . تعى . تستوعب ..

تنبه عبودة على صوت عم سليم الاجش ، يعلن عن بضاعته المكونة من مجلات الأطفال القديمة ولعبهم .. كان ينادى ويجمع الأطفال حوله ، لكنه كان تائها .. كان فى الحقيقة اذنا ضخمة تتلقف صوت المذياع من اى مصدر ، وتبحث عنه فى أى اتجاه ، فيخرج صوته واهنا ، ضعيفا على غير عادته .. فالرجل ــ الاذن يتحرك فى كل اتجاه . لا يثبت على حال . المهم فى اعتقاد متابعة البيانات اولا بأول ..

استمر عبودة فى المسير . تطلع حوله .. تراءت له البيوت القديمة ، كأنها مخلوقات غريبة ، عملاقة تتدافع . تتصارع . تتقارب . تتباعد ، لكنها تنتصب فى شموخ ربما لتقدم له يمين الولاء ، أو تنصت برهبة ، لتتفهم الحدث الجليل ..

توقف عبودة ، لقد وصل الى المدرسة الاعدادية ، مركز الدفاع المدنى والمقاومة الشعبية للحى .. اندفع داخلا .. رأى طابورا طويلا متعرجا ، يتحرك كالثعبان فى فناء المدرسة لم يكن محتاجا لمن يخبره انه طابور المتطوعين .. اندس فى المؤخرة .. أحس بالدفء .. تساءل وهو يتطلع الى الرجال الذين يتقدمونه :

متى صحوا من نومهم ؟ . ان هـذا الجمع المتناقض من طلبـة وعمال وبائعين وبقالين قل ان يجتمع شملهم بهذا الحشد العظيم ، حتى من اجل مبيعات الجمعيات الاستهلاكية .. لكن اليس هو مثلهم ؟ .. ألم يستيقظ مبكرا ويلتئم معهم فى صف واحد ؟ .. اذن لعلها الحرب كما ايقظتهم ، ايقظته ، وكما حركتهم حركته ..

الطابور يتقدم على مهل .. راح عبودة يتذكر ، كم طابورا مشى فيها فى المدرســة من قبل لكن ابدا لم يشعر فى أى منهــا بمثل هذه السعادة الدافقة .. كان فى السنوات المـاضية كلمـا انتظم فى طابور ، يتذكر أباه .. فتعتدل قامته ، وترتفع راسه ، ويمشى بثبات وثقة كأن عينى ابيه ترقبانه ، واليوم حضر الى هذا المركز ، ربما ليؤكد ذاته ..

عاد عبودة يتطلع حوله .. كان الصمت مخيما ، والهدوء مسيطرا ، عدا صـوت المذياع الهادىء الواثق .. ترى هـل يصمت الانسان عندما يتحول الى اذن ؟ .. وهل تتحول حواسه الأخرى الى عمق مكمـل لوظيفـة السمع ؟ .. وبذلك تضـيع الثرثرة ، وتنعدم النظرات المتلصصـة ، وتجنح حاسـة الشـم والتذوق للكمون ، فيغدوا الجسد مجرد امتداد ، أو جزء مكمل للاذن الأم ..

انتبه لصوت رجالى ، **يسأله صاحبه متفحصا** : أفندم ..

كان عليه الدور . وصل اول الصف دون أن يدرى .. كان الرجل ــ المسجل ، الجالس الى ترابيزة مغطاه بالأوراق ، يعيد سؤاله : افندم .. اى خدمة ..

ــ اريد أن اتطوع ..

كان الصوت ليس صوته ، احسه صادرا من اعماق نفسه ، وليس من لسانه ، بينما الرجل يجتاحه بنظرة استنكار شملت كيانه الصغير .. ثم يلتفت لمن يليه فى الدور ليستقدمه ، ويتمتم : انت صغير .. انت صغير يا ابنى ..

هل يضيع حلمه بهذه السهولة ، وتتبخر رغبته فى لحظة ، ويحكم بالموت على امنيته .. شعر بالغضب يتملكه ، فثار مرددا : ابدا .. أبدا .. انا كبير .. انا سنى كبير .. انا شكلى صغير .. انما سنى كبير ..

الرجل يقول بنفس التصميم السابق : انت صغير .. انت صغير يا ابنى ..

ثم التفت الرجل لمن يليه ، متناسيا وجوده : الاسم والسن والعنوان .

الكلمة فقدت تأثيرها ، والالحاح لا معنى له ، لكن عبودة كان ثائرا على معاملة الرجل ـ المسجل له .. بكلمة واحدة قبر حلمه ، فهل كان حلمه خيالا .. وتذكر مدرس اللغة العربية، وهو يقرأ موضوعات التعبير التى يكتبها ، ثم تعكس عيناه اعجابه ، ويترجمه لسانه الى جملة طالما كررها له : انت تتمتع بخيال قوى يا عبودة ..

ابتعد عبودة متأثرا .. تحرك متثاقلا ، بطيئا .. هز راسه آسفا . ونضحت عيناه بالدموع بعد أن غادر المدرسة .. ثم تلفت حوله ، متمهلا ، كمن ينتظر المدد ، فعاودته رؤى البشر الاذان .. كأن الله قد سخط هؤلاء الناس وفق ارادتهم الى اذان .. لكنه يرفض أن يكون مجرد اذن .. كان يريد أن يكون جزء من هدير الحركة ، التى ينصتون لها ، تماما كما كان أبوه .. ليكن ، حركة متدفقة ، تتسمعها بقية الاذان .. ليكن

عبودة المدفع ، أو عبودة البندقيـة او اى شيء آخر .. المهم عبودة .. المتحرك ..

لكن الرجـل ـ المسجل واد أمنيته .. افلا يحـق له ان يبكى .. وان يبكى بحرقة ؟ .

٣

حاول عبودة ان يكفف دموعه ، فلا يليق بالرجال ان يبكون.. فانتزعته صـوت عم سليم ـ الاذن من أفكاره بنبراته المنغمة ، الواهنة : لعب .. لعب .. لعب الأولاد بالعب ..

مر عبودة ببصره على المعروضات ، التى حفظها من طول ما شاهدها .. نفس المجلات البالية والقصص القديمة ، وعدة بالونات ملونة ، وعدد من مسدسات الأطفال السوداء الرائعة .. ربما تمنى لو يمتلك بندقية أو مدفعا رشاشا ـ لعبة ـ واليوم كاد أن يحقق أمنيته ببندقيـة حقيقية .. لكن وتعلقت عينـاه بالحصالات المزركشة الألوان .. ما أرخصها ، ويوما اشـترى احداها ، ومازال يحتفظ بها ـ تحت رعاية أمه ـ ويدخر بهـا قروشه القليلة المعدودة .. توقف فجأة .. ثمة الهـام غريب يجتاحه ، وخـاطر واحد اصبح يتملكه .. فتحول عبودة الى ساقين . وانطلق يجرى بكل ما لديه من قوة ، وسـط جموع البشر ـ الاذان التى مازالت تتعلق بالمذياع فى انتظار وتلهف ..

لقد قر قراره .. واحس ان الله تسامح معه ، فلم يسخطه مجرد اذن .. وانما شاء له أن يتحرك ليكسر حصالته ، ويتبرع بقروشه القليلة المدخرة للمجهود الحربى ..

ساعتها .. ساعتها فقط .. لم يعد فى عينيه أثر للبكاء .

مجلة الهلال ـ اكتوبر ١٩٧٦

لقاء الصباح المبكر ..

« سيأتى اليوم الذى تجد نفسك فيه ضجرا من الوحدة ، حين ينكمش فخرك وكبرياؤك ، وتصر شجاعتك على اسنانها .. اذ ذاك ستصرخ : انا وحيد » ..

نيتشه : هكذا تكلم زرادشت

قرار :

اذهب الى عملى بوسط القاهرة ، كل صباح .. اليوم قررت ــ ونادرا ما اتخذ قرارا ــ أن اغادر منزلى مبكرا ، هربا من ازمة المواصلات الخانقة ..

مشهد اول :

وصلت مبكرا عن موعد العمل بحوالى ساعة .. فكرت ان اتناول قهوة الصباح فى كافيتريا راقية المستوى .. اجلس هادئا على مائدة منعزلة . أستمتع بنسيم الصباح النقى . أتصفح جريدة الأهرام ..

ارقب العابرين . اكاد الامسهم .. ما أمتع أن يستيقظ الانسان مبكرا ، فى مولد يوم جديد ..

يحضر الجرسون قهوتى .. أشكره .. مازالت الكافيتريا خالية ، أو تكاد .. ارتشف قهوتى متلذذا .. سيكون جهـدى بالعمل مركزا ، منتجا .. وسيدهش رئيسى ، فهو لا ينتظر منى اى جديد بالعمل .. يقطع انسياب تفـكيرى جلوس شـاب على المـائدة المجاورة .. يطلب شايا وساندوتشين .. كان نحيفا ، يلبس بنطالا ضيقا كالحا ، قميصا مزركشا .. يحمل حقيبة يد مغلقة ، وجريدة الأهرام ..

فجأة ينهض . ينتقل الى مائدتى ببطء . يجلس على الكرسى المقابل لى . يضع حقيبته أسفل مائدتى . وجريدته عليها ..

دون نظرة الى ، او مجرد كلمة ، يفتح جريدتـه . يبدأ القراءة ..

« عندما تجلس فى ذات المكان وحيدا ..
هل تذكرنى ؟! »

كتابة باهتة على حائط الكافيتريا

مشـهد اخير :

ثمة شرخ يخترق عالمى الخـاص .. يحدثه هـذا المقتحم لمـائدتى ، دون سابق معرفة ، أو استئذان .. من هو ؟ ! .. فقط لو قال صباح الخير .. اذا لهان الأمر .. لكنه يتصرف متجاهلا وجودى تماما كأنه لا يشعر بى ، أو لا يرانى ..

اتطلع الى وجهه .. قناع غامض ، لا يكشف شيئا .. يقفز سـؤال : لمـاذا اختـار مائـدتى دون كل الموائـد الأخـرى ، الخالية ؟ ! .. لمـاذا ؟

يمد يـده الى داخـل قميصـه . يخرج علبـة سجائـر مستوردة .. يتثاءب . يشعل سيجارة .. يضايقنى دخانها .. أحملق فى المـارة ضجرا .. لعل عينـاه الآن تتلصص على .. احاول أن اضبطه متلبسا بالنظر الى .. يخيب مسعاى .. انه لا يحس بى ..

اعاود تصفح الجريدة .. لا رغبه فى شىء ، اللهم الا أن أفهم، ما يحدث على مائدتى .. هل اسأله ؟ ! . لكنه لم يحدثنى ، فكيف اكون انا البادىء ؟ ! .. يحدث ــ احيانا ــ فى وسائل المواصلات العامة ، ان يقف ، أو يجلس الى جوارك شخص لا ترتاح اليه .. فتجد انك ــ فى هـذه الحالة ــ مجبرا على الاحتمال ، فأنت لا تملك حرية الاختيار من يجاورك .. لكن الوضـع هنا مختلف .. حريتى فى الاختيار هى الجوهر .. فى اختيار الكافيتريا والمـائدة والمشروب .. فلمـاذا يحطم هـذا الزائر ، الغريب ، قواعـد تم التعارف عليها منذ زمن ؟ ! ..

احملق ثانيـة لوهلة فى الكائن المنتصب أمامى .. تحنقنى لا مبالاته .. ترى هل اسقط بسهولة ضحية ازعاج عابر ، يبدد معنوياتى ، فى الدقائق الباقية ، التى انصرف بعدها الى عملى ؟ .. أبدا هذا لن يكون .. اذن لأركز تفكيرى ــ بحرية ــ فى مشاكل العمل والبيت ، فهى تحتاج كل اهتمامى ..

بدأت أخرج ورقة بيضاء من حافظة أوراقى ، لأسـطر عليها مشاكلى ، تمهيدا لحلها .. متناسيا كل ما عداها ..

مجلة الهلال ــ يونية ١٩٧٩

لقاء على شاطىء النهر

ينظر توفيق باهر الى ساعته يجدها تشير الى السابعة . يهز راسه ، كأنه يقول ما يزال فى الوقت بقية .. يوسع خطواته . لكنه ايقن أنه لا يريد أن يسرع ، بل يريد أن يتمهل ، حتى ينساب فكره فى هدوء اليها ، ليعيش معها بخياله .. **عيناه تملأ عينيها ، يهمس اليها : انتظرتك طويلا .. تضىء ابتسامتها الوديعة وجهها الملائكى . تتحرك شفتاها : وما بعد الانتظار ؟ ! .**

يقترب منها . يسبح فى عينها : وجدتك .. وجدت جزء مفقودا من حياتى ..

تبتسم . تتسلل حمرة خجل الى وجنتيهــا : انت اكملت حياتك بوجودى ، وأنا اينعت قلبى بوجودك يجذب يديها بابتهال او ايمان : لست جانبا من حياتى فقط .. انما انت كلها .. كل حيــاتى ..

يتنهد بارتياح ينظر الى الطريق .. لمسات فرحته الغامرة ، تكاد تطفو على وجهه . للمرة الأولى ، منذ زمن يبتسم لأى شىء . يضحك من أى حدث ..

يحملق فى النهر القريب . بعض الأطفال يعبثون على ضفته.. يتعلق بصره بطفل صغير ، يقف منزويا ، عن مجموعة من الصبية يلعبون .. عـاد معه الى طفولته ، الى الطريق الذى قلمـا كان يراه .. كانت رائعة تجرى هنا وهناك ، تثير الهرج فى كل جانب ، تبعث الحيوية فى كل ركن .. جذبته من يده : هيـا الى اللعب معنـا ..

تبعهـا بعد الحـاح ، فهو لا يختلط ببـاقى الأطفـال .. وكالعادة ــ أيضا هرب عائدا الى المنزل ، عند عودة ابيه من عمله خشية بطشه اذا ما رآه يلعب فى الطريق ..

يرقب مجموعة من جذوع الأشـجار ، متكومة على حافـة النهر ، كتابوت .. تابوت ابيها .. يومها رآها تبكى جرى اليها . وقف بجوارها . ربت على ظهرها بحنان : سامية .. لم تبكين ؟ !

مسحت بعض دموعها بيدها الصغيرة : امى تقول .. أبى سافر الى بعيد ..

بعد ايام رآها مع امها يهجران منزلهما المجاور . لم يتمكن من توديعها فابوه رابض بالبيت لا يتحرك ..

ينتزعه صـياح الصبية من تأمـلاته . يعاود للمسـير .. تجمعت صور اصدقائه فى خياله . قطع فوزى الحديث ، مصطنعا الجد : قابلتها امس ..

همس صوت بداخلى : ليتنى مثلك !!

تعلقت به العيون . استمر : تمشينا وحدنا قرب النهر .. يدى تنام فى يدها .. حديثنا همس رقيق ..

عاد العواء بداخلى يرتفع : حظك حسن .. أين حظى انا منك !

تبادل توفيق معى غمزة سريعة . راقة اندماجى معه . استطرد : قالت لى :

قاطعه الأصدقاء . انقلبوا عليه ساخرين ، مستهزاين من احاديثه ، التى لا يمل تكرارها .. ليس فوزى وحده ، هو الذى يحكى مغامراته . بل يفعل معظم الزملاء نفس الشىء .. وتوفيق عاطل عن كل ذلك ..

لم يسر ابدا مع فتاة ، كيف يحدثها ، يتفق معها على موعد . يمشى بجوارها ؟ ..

خطرت له صورة صغيرته سامية ، مرارا وتكرارا .. كانت اول الأمر باهته ، غامضة فى مغزاها .. ثم تكشفت له الحقيقة ، بعد حين .. لكن اهى ما تزال تذكره ، ويداعب احلامها ؟ .. لعلها تذكرة .. فمن يستطيع أن ينسى أسعد ايام صباه ؟ ! ..

لكن .. كيف يمكن ان يتم لقاؤه معها ؟ ! .. وكأن الحظ شاء ان يساعده ، فقد سمع أمه تخبر اباه ، انها قابلت سامية ، على شاطىء النيل عند الغروب ، كعادتها فى التنزه كل يوم .. ثم حكت الكثير عن أحوالها ومعيشتها .. فقر عزمه على لقائها ، اثناء نزهتها المعتادة ..

ينظر الى ساعته .. السابعة والنصف تماما .. يراهـا قادمة من بعيد .. يضطرب .. يخفق قلبه بشدة . كيف يبدأ حديثه . ماذا يقولها .. انها تقترب منه اختفت ملامح الطفولة

التى طالما حببتها اليه .. لكن ماذا يحدث لو لم تتعرف عليه ، او تجاهلته ؟ .. كلا .. حتما ستعرفه ، لأنها مالت اليه فى طفولتها ..

يقترب منها . يهمس بصوت متحشرج : مساء الخير ..

يهرع اليها ، يتشبث بها كالمنقذ : الا تذكرينى .. الا تعرفينى يا سامية ؟

تتوقف . تفكر : وجهك ليس غريبا عنى .. يا الهى .. من توفيق !

تمد يدها . نفس البسمة — التى طالما تمنى أن يراها — ترتسم على وجهها .. يمد يده . تنام يدها — الرخوة ، اللينة — بين أحضان يده للحظة . تتركز نظراته ومن ورائها احاسيسه على أصابعها .

يسمعها تقول فرحة : الا ترى كم غيرك الزمن .. حتى كدت لا اعرفك ..

اجابها بأسى : انت ايضا كم تغيرت ..

يتركها ، كالتائه .. وداعها يتردد فى سمعه ، ودبلة فى أصبعها ، تأبى أن تغادر خياله ..

مجلة الهلال — أبريل ١٩٧٩

دائرة الاغتراب

« اصبحنا مجرد عابرين . نلتقى صدفة، فى اجازة قصيرة لنعاود السفر ، كاننا مدفوعين بقوة قاهرة ، تشدنا الى مصير لا نعيه » ..

من يوميات مهاجر

احلام الارهاق :

يشعر أكرم سالم بالارهاق . يخدر التعب ساقيه لطول الانتظار . تنوء نظراته باللهفة ، بحثا عن أخيه وسط أفواج الخارجين من صالة الوصول بمطار القاهرة ..

يخنقه زحام الخلق . يحتمل دفعة منكب صابرا .. تلسع نظراته احمال القادمين المكدسة على العربات اليدوية اللامعة .. هل يقدر له يوما أن يسافر ، أن يركب الطائرة ، الى اى بلد خارج القطر ؟ .. كم سمع من حكايات عن لحظات ارتفاع أو هبوط الطائرة .. فهل سيعانيها ويحكى عنها ــ يوما ما ؟ .. تسقط نظراته فى شراك قبلات الشوق .. ودموع اللقاء .. فهل يكون محظوظا يوما ، ليهجر تعطل الوظيفة الحكومية المقنع ، ويعود

محملا بالهدايا للأهل والأحباب والخير للأولاد ؟ .. ترى هل يواتيه الحظ بفرصة للعمل فى احدى الدول العربية ، ليهرب من حصار اعباء المعيشة ؟ .. ولن يزعجه ـ ساعتها ـ ان يمتلك سيارة ، بدلا من حسابات مركبة ، اجراها حتى يقتنص خمس جنيهات من راتبه ، يؤجر بها سيارة أجرة ، تكون فى استقبال اخيه .. آه .. ما اجملها من احلام .. فقط لو تتحقق .. هكذا تكتب لى السعادة ..

« هل يتداخل الزمن ـ احيانا ـ ليتعانق الحلم والواقع فى لقاء مفاجىء ، ليعلنان معا مولد صدفة جديدة ؟! » ..

من تأملات « أ.س. »

صـدفة :

تشرأب راسى منقبا عن اخى . ومضة دهشة مفاجئة . اندفعت صائحا : محسن توفيق .. محسن .. حمدا لله على السلامة ..

اعانق صديق عمرى .. **تربينا فى حارة واحدة . كنا زميلين بنفس المدارس حتى الثانوية العامة .. بعدها فرقتنا الأيام ..**

تساءلت فجأة : هل ينتظرك احد ؟ ..

ـ لا احب لحظات الفراق .. أو اللقاء ..

واستمر بصوته الهادىء ، الواثق ، المألوف : ولا احب أن اتعب احدا ..

اقول بحسم : اذن أوصلك فى طريقى .. فى الجيزة طبعا ..

اومأ براسـه . صحت ثانيـة : ها هو اخى وصـل .. بحمد الله ..

تعارفا . تبادلا التحية . ركبنا سيارة الأجرة . اندفعت فى طريق صلاح سالم .. يهمس اخى : يا حبيبتى يا مصر ..

تتوه نظرات محسن توفيق بين الخضرة والمساكن وظلال الليل القادم : لى فى السعودية خمسة سنوات .. لكن أجازاتى بالقاهرة .. هى واحات الراحة ، بين لهاث المـال والاغتراب ..

يربت على كتفى بحنان : أين تعمل الآن يا أكرم ؟ ..

ـ مهندس ميكانيكا سيارات بوزارة الزراعة ..

يطرق محسن لحظـة . يبتسم : هـل ترغب فى العمـل السعودية ؟ ! .

ولوج الدائـرة :

هكذا زارنى الحظ دون سابق انتظار .. كان الصـديق يعمل لدى مؤسسة تجارية سعودية ضخمة ، لديها توكيل بيع وصيانة احد انواع السيارات اليابانية فلما اتسع نشاط المؤسسة بصورة خرافية ، بدأ أصحاب المؤسسة يفتتحون عددا من الفروع فى مناطق اخرى من المملكة .. وتقديرا لجهود محسن وثقة فى حسن أخلاقه أوكلوا له ادارة الفرع الجديد بالدمام ، على أن يتولى اختيار معاونيه ..

هكذا تعددت لقاءاتى مع محسن . عادت صداقتنا تنبض بدفعة ارتباط جديدة .. قال ذات مرة : أراك تتعجل السفر ..

أومأت برأسي .. **الضائقة المـالية تشدد قبضتها ، والأولاد متطلبـاتهم تتـكاثر .. والمعيشـة تستنزف الأموال ، كل شيء يدفع ـ بقسوة ـ للهروب من بؤرة الدوامة .. فلماذا لا أتعجل السفر ، حيث الثروة والراحة والاستقرار ؟ .**

أستطرد محسن بهدوء : صدقني .. انا لست سعيدا ..

رأى بوادر الدهشة .. اكمل : فى البداية يكون هدفك من السفر ، أن تكون مبلغا من المـال يكفل لك حياة معقولة .. ثم تجرى الأموال بين يديك .. وبدلا من اغتراب عام . تغرى نفسك بعام آخر .. تتضـاعف أموالك .. وهـكذا دواليك .. دورة **لا تنتهى ..**

مشيرا بأصبعه ، محذرا : دورك الآن فى ولوج الدائرة .. فقط حدد هدفك .. ففيه خلاصك !!

كلمـات غير مفهومة .. اغتراب .. اغراء .. امـوال . الدائرة . الهدف الخلاص .. ضحكت ببساطة : يا صاحبى أريد **أن أسافر كى أعيش .**

همس محسن بأسى : « بدأت الدائرة تجذبك من الآن .. **اطمئن** .. ستجد دائمـا مبررا لاستمرار اغترابك » ..

ثم مبتسما : وحجتى انا الآن .. تامين مستقبل الأولاد ..

محملقا فى بثبات : ترى هل استطيع ؟ !

مجلة الهلال ـ نوفمبر ١٩٧٨

لم يفكر عبد الرحيم المرسى ابدا أن أخته المتزوجة ، والتى تصغره بسنوات ، يمكن أن تزوره هكذا زيارة بريئة لوجه الله . فقد تفرغت هى لحياتها الجديدة منذ تزوجت وهجرت كل ما عداها اما عبد الرحيم فكان منهمكا فى حياته الماجنة ولم يشغله غيرها ، فانقطع ما بينهما من صلات . لذلك لفه صمت ساهم انتظـارا لمـا يمكن أن يتمخض عنه هذا اللقاء المفاجىء .

حملقت أختـه فى وجهـه : تعرف يا عبد الرحيم انك لم تتغير .

الصمت ابتلع الرغبة فى الحديث . والتغير فى حياته لا معنى له . وهو ينشد ما وراء المقدمات من رغبات بينما زيف على فمه ابتسامة بلهاء ، مصطنعة .

عادت الأخت تقطع حبل الصمت : **وجهك العابس ..**

قاطعها مرددا ببرود : وجهى العابس ..

دارت عيناها على الجدران الباهته العارية ، وبقايا السجائر المتناثرة على ارضـيـة الحجرة . فجـأة ودت لو تخبره بحقيقة رأيها . لكنها صرعت فكرتها على وجهه المقطب . وقالت متعجلة وهى ترقبه بأسى : خدمة صغيرة .. أريد خدمة منك .

ظهر المستتر واخيرا قالت قولتها . اوما براسه مشجعا ، ولعن الحظ الف لعنة فعندما بدأ يقضى اول يوم من اجازته فى راحة ها هى المنغصات تجرى فى اثره لتضيع متعتها .

انصت عبد الرحيم مكتئبا لاخته وهى تقول : هيسافر زوجي لزيارة ابيه المريض .. وسأكون معه .. وسأترك الأولاد هنا .. معك ..

صدر الحكم باعدام اجازته دون الانصات لدفاعه عن أعصابه المرهقة ، ورغبته الدفينة فى راحة كسلى بلا عمل .

استطردت الأخت : لن نغيب كثيرا .. عدة ايام ونعود

اصبحت دادة على آخر الزمن . وهربك من الزواج لم يرحمك من المحتوم . وغدا لن نشكو فقط ارهاق اعصابك . ولتتحسر ما شئت على حلم الراحة الضائع .

حاول أن يعتذر : لكن انت عارفه انى هنا وحدى .. وعملى ..

قاطعته راجية : اول خدمة اطلبها منك منذ زواجى .. عدة أيام ونعود .. لن نذهب والأولاد معنا .. أيرضيك هذا ؟ .. وافق اذا .. ارجوك ..

ارتفع رنين جرس الباب . وتمنى عبد الرحيم الا يكون مزعج آخر ، لكنه اندهش عندما ابتسمت اخته فى وجهه وهى تقول : انهم أولادى .. قلت لهم اتبعونى بحاجياتكم ..

قاطعها الأخ محتجا : ولو كنت غير موافق ؟ !

طفت على شفتيها ابتسامة هادئة : اطمئن .. كانوا سيقنعوك .

اعتدل عبد الرحيم وانزعج عندما احاط الأولاد كرسيه . واغرقوه بقبلاتهم وتحياتهم الحـارة فصار فجاة مسلوب الارادة فوجهـه لم يشـهد من قبل الا القبـلات المحمومة من فتيـات بلا مستقبل ، وكلمات الترحيب التى يسوقها له الصغار فقدت براءتها وتلاشى صـدقها منذ زمن لطول تكرارهـا بلا معنى .. وبدأ يستعيد شعوره ، فرنى بناظريه الى الأولاد . كانوا ثلاثة ، عرفته أخته بهم قائلة : هـذه ناهد . عمرها خمسة عشر .. يليها طارق . عمره اثنا عشر .. والصغيرة صفاء . عمرها ثمان سنوات **كانوا جميعا يبدون أكبر من أعمارهم . وشيء مؤسف أن يعيش الرجل ووراء أخته مثل هذه البراعم ولا يكتشفها** . انتبه لأخته تهمس : على فكرة .. ناهد ستعتنى بهما ..

وعلى الأجازة السلام . والأفضـل أن تودع الراحة التى لن تراها . وطارق يلف رقبتك النحيفة بذراعه الصغيرة ، وعيناه العسليتان تهشان لك بوداعة وهو يمضغ الكلمات قبل نطقها : لم نكن نراك ..

ولهثت صفاء لتكمل : ماما قالت انك كنت مسافر .

ايماءة بالرأس تكفى . كان مسافرا . وما كل هؤلاء الناس الا مسافرين فقط فى مجاهل شتى . وفى عينى أخته نظرة اعتذار، وقالت الأخت : سافر ، لتبرر غيبته لأولادها أو حتى لا تشوه أحلامهم الجميلة . وصدقت ، ثم عادت تخصـه بزيارة . فهل هنا بداية الاستقرار ؟

اخته تشد على يده : أراكم بخير عندما أعود .

هرولت نحو الباب بعد أن أوصت أولادها بالطاعة . وكان فى نظراتها شـكر وامتنان .. وبين ساقيه وقفت صفاء تداعب

شعيرات ذقنه النامية كانها تزعجها . ربت على شعرها المتوهج ببطء ونفس اليد انسابت من قبل على شعور كثيرة بعضها طبيعى واغلبها مصبوغ . كان يهدف ان يحيا نشوة ابديه بين هاتيك الأجساد ، واليوم راحت يده تتحرك على شعر الصغيرة بلا هدف .

وبصوت خافت تساءل طارق : خالى .. اين ننام ؟

النوم مشكلة لم تخطر على البال . وناهد ما زالت تبتسم بحياء . اين ننام ؟ . ونام اهل الكهف زمنا دون قلق ، فهل تكون هذه هى النومة الأخيرة ؟ !

جرجر قدميه متعبا . ادخلهم حجرة نومه . واليد اليمنى على راس صفاء والأخرى يتعلق بها طارق . اشار للسرير الذى طالما شهد عربدة لا حصر لها ، وهجعت اليه اجساد عطشى ، تتوق لنشوة فاجرة ولم يبق من تلك النشوة الا ومضة فى الخيال تؤرقها الذكريات عند كل لقاء جديد .

ـ ستنامو على السرير ..

قاطعته ناهد : وانت ؟ !

وسخر من السؤال كما اعتاد ان يعامل نفسه . وهز راسه بلا مبالاة ومن يهتم اين ينام .. عند زميل او فى بنسيون او عند ضائعة . ابدا . لم يعد يفكر فى الاجابة .

عاد يصدر اوامره كقائد مهزوم : اخضروا حقائبكم .. ستنامو هنا .

وفى عمله تغامز الزملاء على اجازته . ودارت حولها

الاقاويل . ولولا بقية من حياء لسالوه عن اسم المعشوقة الجديدة، التى قرر التفرغ لاحضانها .ولو حكى لهم عما يحدث له ما صدقوه

رجع الى حجرة الجلوس . تهالك على الكنبة . مدد ساقيه ، اغمض عينيه ، ودبيب الأقدام الصغيرة والخطوات الخفيفة يطرق سمعه ، ومنذ ايام اغمض عينيه متجاهلا وجود امراة اعتادها رغم انه يعرف الغرض من بقائها .و فوض لها العمل الفاجر حتى يجرب لونا جديدا من المتعة . وكانت ليلة لم يعد يحس لها الآن اى طعم .

انتبه على يد صغيرة تهز كتفه . وصوت رفيع موسيقى يتساءل : انت نمت يا خالى ؟

هز راسه نفيا ، وارجح ابتسامة على شفتيه . كانت صفاء . وجدها تلتصق به ، والحيوانات البرية تنفر من اى تلامس لم تعتده .. مد يده الى الترابيزة . تناول من علبة السجائر سيجارة أشعلها . ورغبة عنيفة فى تفكير عميق تلح عليه . وجسد صفاء الممتلىء تنبىء عن ترهل ضخم فى الشيخوخة . والبنت عينيها فى عينيه . وفجأة راحت تدير قرنينا عينيها فى مقلتيها بسرعة وهى تغمض عينيها وتفتحهما بانتظام وابتسم فاللعبة مسلية . ويوما فى طفولته جلس أمام لعبة الزقازيق الدائرية طوال النهار ، وهو يرقب راكبيها العابثين ، فاغر الفم مرة أعلاها وأخرى قرب الأرض واللعبة لا تتوانى عن الدوران باستمرار .

— عروستى شعرها انقطع .. تقدر تركبه ؟

اشراقة رضى على وجهها الأبيض ، ولعبة عينيها كانت ثمن الاصلاح . والطفلة جرت تحضر عروستها . وحبات عرق تكورت على جبهته وتحجرت بشكل يغيظ ، وما من نسمة تنعش الجو السقيم .

احضرت صفاء عروستها وهى تلهث . قدمتها له . تناولها ساهما . **وما يذكر انه امتلك يوما لعبة خاصـة به ، عدا حلمه العجيب فى بندقية صغيرة لا يدرى لم أرادها رغم ان امنيته هذه لم تتحقق ابدا .**

ثبت خصلة الشـعر الصغيرة فى تجويفها برأس العروسـة المكور ، ثم اعادها بملامح وجهها المطموسة لصفاء ، التى أمسكتها من وسطها فرحة . وقفزت لأعلى وطبعت قبلة سريعة أرادتهـا على وجهه لكنها جاءت اسفل اذنه ، ثم جرت لترى العروسـة لأختها **وصاحبنا صامت ، حائر ، فبراءة القبلة اسلمته للذهول والوجـه لم يشهد من قبل سـوى الحضيض ، وافـواه باردة مصبوغة .. هو لم يعرف القبلة الا بداية ، لكن الطفلة وهبتـه نوعا لم يجربه فى ماضيه الحافل .**

جذب من السيجارة نفسا عميقا ثم نفث الدخان ببطء ، وهو يرقب الثلاثة القادمين نحوه : صفاء تؤرجح عروستها وتداعبها ، طارق يحمل لوحة شطرنج وعلبة خشبية . ناهد تمسك بيدها حقيبة صغيرة .

حولت ناهـد طريقها نحو الباب : ها خرج أشترى بعض حاجات .

غمزت صفاء بعينيها اليمنى بسذاجة . قالت وهى تكبت ضحكة بين شدقيها : عشاء .. لتعد العشاء .

سأله طارق وهو يضع لوحة الشطرنج المربعة بجواره على الكنبة ويبدأ فى رص القطع من العلبة الخشبية : تلعب شطرنج ؟

اجاب اسفا : من مدة طويلة لم العب .

واختار عبد الرحيم القطع البيضاء بلا تردد . وبدا يلعب . حرك البيدق امام ملكه مربعين .. **يذكره . مازال يذكره . وفى نهاية دراسته الثانوية لم يهزم الا مرتين . واشتهر بين زملائه بالمنتصر . ولذه ان تفكر ، ومتعة ان تفوز ، وبعد البكالوريا هجر اللعبة ، وتفرغ للعمل .**

صفاء تمر بأصابعها الرفيعة على شعيرات ذقنه النامية . وتتساءل : كم عمرك ؟

رأى فى حياته ألوانا كثيرة من المرأة لم تسأله احداهن عن عمره . وقر الرأى منذ لحظة أن يحنى راسه لتمر الأجازة الكريهة كما تكون ، وها هو سؤال حرج عن العمر واين ضاع .

أجاب وهو يعاود تركيز فكره فى الشطرنج : اثنان واربعون

— و .. وظيفتك ؟

لسان الصغير لا يعرف معنى الصمت . اخذ نفسا من السيجارة المحترقة . وملكه ينقصه خطوتين ويموت والضجر بدأ يدب فى الفكر من جديد . وهو يشعر بضيق يجثم على الصدر ولا يدرى سبيل الخلاص .

اجاب ساهما : رئيس قسم الحسابات بشركة كبيرة .

ضحكت صفاء : باباك مبسوط منك ؟

— بابا غير موجود .

غير موجود كمات منذ زمن . وقيل له ماتت امك وانت فى الخامسة واختك عمرها عام . فتزوج الأب ليرعاكما . واثنا واربعين عاما تبدو كغمضة عين بلا معنى مفهوم . وعبد الرحيم مسلوب

الارادة تخيفه العودة للوراء كما يفتقد الرغبة فى المقاومة المجدية .

على المطفأة الصفراء سحق السيجارة بقسوة فأخمد ومضاتها المتوهجة . **وبذل محاولة اخيرة لانقاذ ملكه ونجح فيها . وأزيز مروحة الهواء الكهربية يثير اعصابه المرتخيه وتحول من الدفاع للهجوم وبضربة مرسومة فاز .**

طارق يعيد ترتيب القطع على اللوحة الخشبية : تلعب دور ثان ؟

صاحت صفاء وهى تتخذ مجلسها على ركبة عبد الرحيم : لاعبنى انا .. انا بأعرف العب شطرنج .

نفر عبد الرحيم من جلستها . ازاحها بلطف بعيدا عنه . اجلسها بجواره وعادت ناهد لتعد طعام العشاء ولم تبادله غير نظرة مبهمة . ولا شهية له اليوم لطعام ، ودقات مبهمة تختال فى رأسه الكبير فتورثه ضيقا على ضيق . واعدت ناهد العشاء فى فترة وجيزة ودعتهم له . ومن اجل لأطفال سار متحاملا وأثقال رهيبة تثقل كاهله .. جلسوا الى المائدة . عديد من الاطباق متناثر عليها . وصفوف بسيطة من الطعام . **والجديد فى العشاء انه المتبوع والثلاثة تابعين وذات مرة اعياه طعام المطاعم المتكرر فدعى كل امراة تزوره الى صنعه والاشتراك معه . وغالبا ما تناول غذاءه مجبرا كشىء ثانوى يحرك جسده النحيل لأداء وظيفته الأزلية .**

وقال لناهد : عشاء لذيذ .

فكان الجزاء هزة مقتضبة من راسها ، ولعلها شكرته . ورجع متعبا الى حجرة الجلوس فارتمى على الكنبة . وناهد قرب أقدامه تهمس : أتريد شيئا ؟

اراد يوما لذة محرمة تمسح عنه هم حياته المجهول . ومن المراة ذاق الكثير حتى اتخمه الشبع . ويريد اليوم راحة ابدية ، مستحيلة كالنجوم الملتمعة فى الليـل البهيم . ويتمنى ان تزيل هذه الراحـة التفاهة التى غدت تغلف كل شىء . وكما حـلم الانسان منذ الازل براحة مستقرة فها هو ينشد وجودها المأمول .

اعلن نفيه القاطع بهزات متتالية وابتسامة مجاملة . ومد يده وكور وسادة تحت راسه . واغمض عينيه فالصـداع بالراس يزداد **وامتلأ ذهنه بالأفكار حتى طفت على السطح افكار جديدة والأشياء الصغيرة يمطها المجهول لتتمدد الى ما لا نهاية . فالنملة صارت فيلا . والفيل اصبح رقعة سوداء بلا حدود . وجسده النحيل اكتسب خفة غريبـة حتى انعدم وزنه وتبخر فى عـالم عجيب . وفى عمله اعلن للوجوه المشرئبة اليه انه يريد ان يرتاح . ولم يفهموه . لكنه يريد أن يرتاح . والبحر فاض حتى اغرقه . وما من سائل يواسيه ..**

ايقظته صفاء من غفوته القصيرة : خالى .. خالى .. سأنام معك .

صـوتها يسمعه من بعيد ولا يفهم معنـاه . فتح عينيـه بصعوبة .. قالت صفاء حائرة : « انت عرقت جدا .. كل جسمك عرقان » .

برأسـه ثقل غامض لا يدريه . والجسـد مبلل بالعرق . لكنه استعاد رباطة جاشـه بسرعة . وبصـوت خافت أشـار للصغيرة : اغلقى النافذة أولا .. واحضرى برشامة من الدولاب .. ستجديه بسهولة .

امتثلت الصغيرة للأمر ، بينما استولت عليـه الحيرة .. **مريض . مريض . مستحيل . انما هو ارهاق مؤقت ، شاء سوء الحظ ان يختار الزمن المناسب حتى تكتمل المنغصات .**

رجعت صفاء بأقراص البرشام وناهـد وطارق . ناهـد منزعجة . قالت برهبة : « خالى .. ستنام على السرير حتى ترتـاح » .

لم يقـاوم تحـرك معهم كالمسـحور الى حجـرة النوم . اضطجع على سريره خائر القوى . ثم ابتلع القرص بجرعة مـاء وتمدد ، بينما تجمع الثلاثة حوله . طارق يدلك له قدميه . صفاء تفرد له شعره المكرمش بيديها الصغيرتين . ناهد تجلس على كرسى قرب سريره بين يديها تنام يداه ذات الأصابع الطويلة . كأم تحنو على طفلها الرضيع .. **فالأعين من حوله يملأها الحنان وتغيض بالقلق .. ويوما قـال لم يبق فى الدنيا غير الضـياع ، فلياليه كانت طويلة ، قاسـية . احس خلالها دائما انه نبـات شيطانى او حيوان برى ، حتم عليه ان يعيش وحده بمعزل عن الآخرين ومع الداعرات حاول ان يدفن حظه الأليم فى بحثه المضنى عن لذة مطلقة بلا قيود ، وازدادت عزلته مع الكبر ، ففى وحدة عمره الرهيبة لم يسمع يوما همسة حنـان او كلمة حب بريئـة بلا ثمن .. وهو مندهش من الأطفال يحاول ان يبحث بين جدران ذهنه العقيم عن سبب بلا جدوى . فهو لن يفهم الدافع لشىء لم يجربه فى حياته .**

أصبح جو الحجرة خانقـا . **وخيمت عليها اطيـاف عوالم شتى ، ومن قبل ضجت الحجرة بالتنهدات** الفاحشة والهمسات المثيرة والليلة لا تسمع فيها الا تردد انفاس طاهرة كحفيف الأشجار فى صباح ربيعى مشرق ، وأرواح رقيقة تكبت فى اعماقها النقية قلقا وليدا . وبين لحظة واخرى ترسل ناهد اشعار استفسار عن صحة الخال وتطور حاله . والليل يمضى كعهده رتيبا مملا . وغفت صـفاء على صـدر عبد الرحيم ونامت . ومن الخـال نظـره كسيرة ، حيرى لوجهها البرىء . والوداعة وليدة مثل الوجوه ،

ولا هموم على صفحته الصافية . لكنه نفر كعهده من سخونة جسدها لالتصاقه بصـــدره . وغزى الضيق محياه . وعندما حاولت ناهد أن تحملها بعيدا عنه ابعد يدها برفق ، ووســدها صدره المبلل بالعرق .. وكما نامت صفاء على صدره نام طـارق على قدميه ، فأصـــدر المسيطر المريض أمره النهائى : سينامان معى .

واكمل فى سره : فالمكان كان لكم واحله المرض لى .

حرارة تلامس الجسمين بجسمه تحرقه . والعرق يغرقه . **ولكنه حاول ان يتناسى شتى الآلام ، فشعر ثانية بخفة غريبــة تغمر جسده الكليل ، وانه يرتفع وسط عالم عجيب . والسماء فوقه زرقاء صافية . واصبح مس النجوم سهلا ميسرا . وحتى النباتات الشيطانية تحيطها اعشاب كثيفة ، ولا معنى للثبات . فالنباتات تستطيل الى الابـد . والاشـــياء تنقلب بين الجرهر والمظهر وربما تنقرض حتى تختفى او تتمدد حتى تصبغ الافق . ومرة اخرى صـــارت النمـــلة فيـــلا . والفيل رقعـــة ســـوداء بلا حدود .. ونام .**

وفى الصـــباح ظل طريح الفراش ، مخدر البدن ، مرهـــق الأعصاب . وحياة الأطفال بقبلة الصباح .. صباح الخير ، وفى العالم خبايا لم تتحدث عنها الكتب بل تدعمها الحيـــاة كتحية الوجوه الباشه بعد انقضـــاء ليل كئيب ، او روح الأطفـــال التى تنساب على طبيعتها دون اى تعقيد . وبدت فى حـــركة الأولاد الدائبة لمسة جمال خفيه انعشت فكرة المريض . فشـــعر بقوة تدفعـــه لينشط وينهض ليفتســـل ويحـــلق ذقنـــه الناميـــة . **تحرك متباطئا . ولم تعجبه جدران بيته العارية ، الباهتة ، كانها حوائط قبور قضى عليها الزمن بالفناء والنسيان فصمم ان يزينها ببعض الصور ويطليها بالوان مبهجة .**

بعد ان اغتسل ، نظر الى وجهه الأصفر فى المرآة . وجـه غريب . عظـام مستطيلة . شفتان غليظتان جافتان . عينـان منتفختان حمراوتان . واندهش لأنه لم يعتد ان يطيل النظر الى وجهه .. وحلق ذقنه النامية وعطر وجهه بماء الكولونيا فشعر فجأة بالراحة . والتمعت عيناه الحزينتان الساهمتان . ورجـع يندس بين أطفال أخته . وأكل معهم افطارا هنيئا .

وكأنه كان يعرفهم منذ سنين طويلة أو أن ليلة أمس وطدت أركان علاقتهم ، راح يثرثر معهم ، وغمرت حديثه نبرة صـدق جياشة لا حرج فيها . ودعاهم للخروج معه . ومشوا معا فى الطريق الشمس تنير الطريق . لم يضايقه حرها اللافح .. وانطلق يقبل العالم بنظراته المتفائلة . وأحس بطاقة حب هائلة تتفجر فى أعماقه . كم يحب هـذا العالم . كم يحبه . والتقى بامرأة لها ماضى معه فتناساها ولم يهتم ببسمتها الساخرة .. وقـال فى نفسه : ما أجمل التنزه فى طرقات القاهرة بلا هدف .

وتناولوا طعام الغداء فى مطعم محترم . وذهبوا بعد الظهر الى سينما ومع الغروب عاد الى البيت سعيدا .

على نفس الوتيرة السعيدة مرت خمسة أيام سريعة كحلم عابر فى ليلة بهيجة وعندما ودعه الأطفـال ظل ذاهـلا لفترة غير مصدق . وشعر ان جزء من ذاته ينفصل عنه . واجازته بقى منها الكثير ليجتر فيها ذكرى هذه الأيام الرائعة .

وفى المساء جلس وحيدا ــ كما اعتاد منذ زمن ــ لا صـوت ولا حركة . واشتد الحر . وضايقه أزيز المروحة . ونظرة حزينة الى الحوائط الكريهـة . هـل ستزين أو تطلى ؟ . لم يستطع

الاجابة . وظن لوهلة ان ناهد تناديه او ان صفاء تداعبه أو أن طارق يدعوه للشطرنج . ثم اكتشف ان الوهم يخدعه ، والخيال يعذبه ، بينما ترددت فى كيانه همسه حانيه : انك تفتدهم .. تفتقد عبثهم الصبيانى وحنانهم ..

هز راسه بانفعال ودفن عينيه فى الليـل القاتم . وتاهت الهمسة فى أعماقه برقة وبطء . فزم الرجل شفتيه الفليظتين كمن يخنق دمعة او يقتل وحشة طارئة . بينما هبت عليه نسـمة ندية فتنهد باسى . ثم عادت الهمسـة تطرق باب وحدته المضنية ، ففكر فجاة فى امراة تنسيه كرب ليلته . وهز راسه ضجرا وراح يغالط نفسه . ابدا ابدا .. أنا لا افتقدهم .. يكفينى ان أعيش .. وكمن يشكو لليل بعبرة يائسة : الا يكفى أن أعيش ؟ !

مجلة الهلال ـ يولية ١٩٧٦

اعترف .. هوايتى غريبة

لابــد أن نلقى قنبلة . لابد أن نخــلق فضيحة. نريد زوبعة من تلك الزوابع « التى تنقى الجو . انه لخانق . لم يعد الواحــد بقادر على التنفس » .

جان كوكتو ــ مسرحية اورفيوس

حــل موعد اللقاء المنتظر .. أشارت السكرتيرة الى باب غرفة المدير المفتوح . تفضل يا أستاذ عمر .

حاولت مرارا أن ادخــل ، ان احظى بالشرف الســامى ، لكن ذات النظارة الدائرية الواسعة كانت تتربص بى . تقف لى بالمرصــاد لتبدد محــاولاتى باعــذار متعددة .. ضيوف مرة ، صحفيون مرة ، مشغول مرة ، فى جميــع الحالات حاجز يصعب اختراقه ..

تشاغلت السكرتيرة بقراءة بعض المستندات على مكتبها . تخطاها عمر كاظم . دخل .. **كان الباب مدخل كهف من العصور القديمة . سقطت فى الفخ . انتابنى خوف مفاجىء للحظة فى هذه المتاهة . جريت ببصرى ــ مذعوراً ــ بحثا عن هدفى الضال ..**

الأب متربع على السرير ، يملأ الغضب عينيه : حرام ان تفعل ذلك .. ماذا فعل لك ؟ ! ..

وقع بصره على مائدة اجتماعات مستطيلة ، طويلة ، مغطاه بمفرش فى خضرة أرض الريف المنبسطة اصطفت الكراسى حولها بنظـام مهيب . يتقدم خطوتين .. كان المدير منهمكا فى مكالمـة تليفونية قال عمر كاظم مرتبكا : صباح الخير ..

هز المدير راسه . اشار الى كرسى مجاور لمكتبه ، داعيـا اياه للجلوس . جلس عمر .. اضاءة الغرفة غير مباشرة . جهاز التكييف يصـدر أنينا مزعجا . مكتب المدير عريض ، ضخم تنتظم عليه مجموعة ملفات ، بعض المراجع العلمية . نتيجة ، جريدة الأهرام ملقاه فى الجانب المقابل لمجلسه انهى المدير العام المكالمـة . انهمك فى توقيع بعض المستندات امامه . بدت صلعته ملسـاء ناعمة .. **صاح الأب مغتاظا ، يتطاير اللعاب من فمه : « نفسى افهم سر تصرفك الغريب ... فهمنى يا ابنى »** .. طلاء الحجرة هادىء الألوان . مريح للاعصاب ينتصب على الحـائط خلف المدير ، اطاران لصورتين يطل منهما وجهان مألوفان . مشهوران ، لعلهما يراقبان ما يجرى فى صمت ..

اسقط المدير القلم من يده . خلع نظارته الطبية . أخرج منديله الناصع البياض . مسح عينيه التفت الى عمر . كمن اكتشف وجوده فجاة . بدأ يتفحصه ، شاهد العرق يغرقه : « الجو اليوم احسن » ..

اعلنت جريـدة الأهـرام انكسـار الموجـة الحـارة .. لعلهم يصـدقون ، فمفاجـآت الغيب المجهولة ما تـزال فى طى الكتمـان . شـعر ببعض حبـات العرق تنزلق على بطنـه :

« فعلا ... درجة الحرارة منخفضة اليوم » .. عادت الثعابين الى اوكارهـا بعد ان ارقهـا الحر طويلا . اوت العقـارب الى جحورها .. قال المدير بصوت محايد : طبعا انت عارف السبب فى انى طلبتك ..

جذبه اسعد توفيق من يده وهما يسيران : انا قلت لك .. مديرك رجل سيء .

يستطرد المدير : هنا يا ابنى محل عمل ..

صرخ الأب هائجا : لم فعلت ذلك ؟ .. لم ..

يفتح عمر فمه ليرد . يقاطعه المدير : لا اريد ان اسمع اى كلام .. كن فى حالك فقط ..

استيقظت فى الصباح . فتحت النافذة كالعادة حتى يحضر لى البواب جرائد الصباح ــ بدات الحياة تدب فى الطريق .. لكن كلب الجيران الأسود الصغير لم يكن يلهو ــ كعادة كل يوم ــ بل كان ممددا على الطوار المقابل ، فاقد الحياة ، مفتوح الفم ، جزء من اسنانه السفلية بارز . عيناه مغمضتان . ذيله الأسود يختفى تحت بعض عيدان القش ..

نظر عمر كاظم للمدير .. اكتشف للمرة الأولى ، وجـود بعض الشعيرات البيضاء فى بطن الكلب الميت .. عاود المحاولة : يا سعادة البيه ..

رفع المدير يده مقاطعا .. **انفجر الأب ثائرا : اريد السبب فى كل ذلك . قل لى الحقيقة ..**

انتبه عمر كاظم الى المدير . كان يدير كرسيه الدائرى ربع دورة ، متطلعا الى صـورة الرئيس المعلقة خلفه ، كمن يتشهده ..

أو يستمد منه الوحى : فكر فى أولادنا .. القاعدين هناك .. فى الخنادق فى الطين .. فى الوحل .. حياتهم رخيصة .. بيضحوا بها لأجل البلد .

صارحنى اسعد توفيق مندهشا : « تعرف لما اقابل مديرك فى أى مكان .. يفتح لى ذراعيه .. يحتضنى » . يتردد فى الغرفة صوت المدير المنفعل ، ينتفخ أنفه ، تتكاثر اشاراته ، بلا مشاهدين ، سوى عمر كاظم المتابع فى صمت القاعة :

يا بنى .. لابد يكون جنودنا القدوة للكل فى تصرفاتهم .. فى احتمالهم .. فى ..

قال اسعد توفيق : تعرف ان سيارة المدير الخاصة .. ثمنها اربعة آلاف جنيه .. حاجة العمل طبعا بتتطلبها !!

تريث المدير . تمهل . ثملا .. منبهرا بكلماته العظيمة . هل ظن انه يستطيع ان يتكلم يوما بمثل هذه الحرارة ، ليت الأولاد هنا لينصتوا ويتعلموا . نظر الى الصورة المعلقة وراءه . — مصدر الهامه — بامتنان . تطلع الى عمر كاظم ، كمن فوجىء بوجوده تذكر . اعتدل فى جلسته بدأ ينصح : يا ابنى .. هنا محل عمل .. لازم نحافظ عليه .. ونضحى فى سبيله ..

قال زميل محذرا : يا عمر خذ بالك .. كل حاجة هنا بتوصل المدير ..

يحملق عمر كاظم فى المدير : يا فندم عندى كلام مهم .. احب أقوله لسيادتك ..

يستنكر المدير تجرأ عمر كاظم بالرد أو المقاطعة ، يشير بيده رافضا أى مقاطعة : لا أريد مناقشات ولا أى كلام .. اهتم بعملك فقط .

ولد اليوم ميتا . جثم ثقل غامض على صـــدرى . سقط الجرو الصغير فوق الأوراق القذرة ، توقعت حدوث مكروه . تتلكأ الكلمات فى أعماقى . انظر ببلاهة الى المدير . **عرك الأب اذنى بشدة لحظة صمتى المذنب : اياك ان تعاود هــذه الفعلة ثانية .. اياك ..**

يكرر المدير منبها : هيا يا ســيد عمر .. ارجو أن تهتم بعملك ..

ثم منهيا المقابلة : مع السلامة ..

لم يتحرك عمر كاظم .. يوم مشؤوم من بدايته . **قــال اســعد توفيق : « الاخطــاء معروفــة .. لكننا نغمض اعيننــا بمزاجنا »** .. نظر للمدير . اصطدم بحــائط صلب من نفــاذ الصبر .. نهض متثاقلا لفحة هواء جهاز التكييف البارد . كاد يتعثر فى السجادة الثمينة . **قال اسعد توفيق : « بعد ما فحصت حساباتكم لقيت كمية اخطاء »** ..

يفتح باب الكهف .. شبح ابتسامة ساخرة على شفتى الســكرتيرة . كنت اخرصــا .. قلت للزمــلاء : توزيع الأجور الاضافية غلط .. سكرتيرة المدير مثلا .. لا تستحق اى اجر اضاق .. هى لا تقعد الا ساعتين فقط .. اثناء وجود المدير ..

طالعته وجوه يعرفهــا . أخرى يجهلها . قبر نظراته فى الأرض . ابتعد مسرعا . ثار على ذاته . على صمته اللعين . كيف صمت ؟ ! .

لــماذا لم يتــكلم المشحون حتى النخــاع بالسخط ؟ أين تبددت ثورته المستمرة على أوضاع العمل ؟ .

يجفف عرقه . يشم رائحة عفونة . هل يتحلل الكلب ؟ هل يعف عليه الذباب ؟ هل يتحول الى جيفه قبل أن يحملوها بعيدا ؟

اصطدم بزميل . اعتذر . **قال اسعد توفيق : قبل ما ارفع تقريرى للجهاز .. قابلت المدير ..** يدخل الى قسمة . تلسعه النظرات المتلصصة ارتمى على مكتبه . مال عليه زميل المكتب المجاور : خير يا أستاذ عمر .. يظهر انك متضايق ..

قالت الزوجة مفكرة : نومك غير مضبوط .. بتتقلب طول الليل .. كانك نائم على جمر ..

يعود الزميل يهز الصمت : خير .. المدير ضايقك فى حاجة ؟ ..

ضحك اسعد توفيق : عرضت على المدير المخالفات والاخطاء .. وبعدين قعدنا نتكلم ..

يهز عمر كاظم راسه للزميل : ابدا .. ابدا ..

ابتعد الزميل . رجع يتلوى . يتمايل . يلوك الكلمات بين أسنانه الصفراء : أستاذ عمر .. رئيس القسم بيطلب دراسة الملف الموجود معك اليوم .. وتقابله آخر النهار .

اخطره عم ابراهيم ، ساعى القسم ، ان سكرتيرة المدير تطلبه شخصيا . استعاذ بالله من كل شر مجهول . ذهب اليها .

قالت : المدير .. هيقابلك بعد ساعة .. لا تتاخر ..

فتح الملف المطلوب . العيون تأكله . ضغط على الجرس المجاور . جاء عم ابراهيم الساعى ..

لاحظت الزوجة تغيره : انت تشرب قهوة كثيرا يا عمر ..

يقول : قهوة عالريحة يا عم ابراهيم ..

حصار رهيب مضروب حوله . ثمة اتهام خفى مسلط عليه . اتهام أم أدانة ؟ الواشى مجهول الهوية . لكن الاتهام محكم ، والا ما اهتزت ساعات النهار ، وانتفضت لتعلن الحكم الغريب . تمددت الكلمات أمامه . طالت حروفها . بهتت . تآكلت .. **فاجأه أسعد توفيق : تعرف انى طلبت نقلى من قطاعكم .. وصدر قرار نقلى ..**

فكر عمر كاظم : يمكن يوافقوا على نقلى من هنا ..

كظم الأب غيظه : تعملها .. وتختبىء ..

يغمض عمر عينيه .. **فلسف أسعد توفيق ما يحدث : لم نهتم بما يجرى .. لم نحزن .. المسألة هى خروج ودخول على مستوى الدولة . مصروفات . منهوبات من وزارة .. هتروح ايرادات فى مشاريع ثانية .. المسألة مصروف وايراد .. طيب .. لم نهتم ؟ ! .**

يتقاطر العرق ، يتدافع ، يتكاثر ، يغرق . الموجة الحارة لم تنته . لماذا يكذبون فيعلنون احتضارها . الجرو فقط مات ، فبعث فى يومى التوتر .. هل يخبىء النهار مزيدا من الألم ؟ .. **قال أسعد توفيق :**

((مديرك كان متفاهم .. فرفعت التقرير للجهاز دون أى مخالفات)) ..

نصحنى الأب بليونة غير معتادة : اهجر يا ابنى هوايتك الغريبة .. اهجرها تستريح ..

يحملق عمر فى الملف . لا يرى شيئا . لا يفهم .. يحاول ثانية ـ يفشل .. **قال أسعد توفيق بأسى :**

« وعدنى المدير بمكافأة لمجهودى .. لكى مضت شهور .. ولم يهتم » ..

وصلت القهوة . اشعل سيجارة . **قالت الزوجة : ليتك تجد أى عمل اضافى .. يعوض ما تدخن من سجائر .**

عادت جثة الكلب الصغير تحتل خياله . كان منبطحا باهمال على الطوار مستسلما لمصيره .. **أمسك الأب بيدى : لم ترمى الكلب من رابع دور .. ماذا فعل لك ؟ !**

يومها عوى الكلب وهو يسقط على الأرض جثة هامدة . متناثرة الاشلاء . اشتكى الجيران شقاوتى . اندثر الخوف عندما حل العقاب جزاء الفعل الطائش .

شرب جرعة كبيرة من القهوة على غير العادة . ارتاح لمرارتها .. **هز أسعد توفيق رأسه : فهمت طبعا فى الآخر . فهمت الوعد كان كلام .. مجرد كلام ..**

جذب عمر كاظم نفسا عميقا من السيجارة . شاهد النار تأكلها ببطء . راح يتسلى بمشاهدة الدخان الذى بدأ يعبق جو الحجرة فى غلالة ضبابية باهته .. **كان اسعد توفيق مازال يطارده : أنا قلت لك .. مديرك رجل سىء !!**

خبر الصفحة الأولى

« النيابة تامر بحبس اثنين من (كبار العاملين) بجهة حكومية كبيرة على ذمة التحقيق . أمر وكيل نيابة ... البقية صفحة ١٠ » .

نص ما نشر بالصفحة الأولى فى جريدة يومية .

فى الظلام :

يلف الظلام كل شىء .. مبنى قسم الشرطة ، الفناء . يجثم على صدر غرفة الحجز ، او التخشيبة ينساب صوت حسان المولى جهوريا واضحا : « **والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، ان سعيكم لشتى ..** » .

تظل العينان مصلوبتين على قضبان النافذة الحديدية .. **قلت لحارس الباب الخارجى لمستشفى القصر العينى : سادخل الاستقبال .. لأنى .. مريض ..**

كذبت . دخلت . سقطت فى متاهة مظلمة .. المستشفى قصر مهجور . تثير الرياح الأشباح بين فروع الأشجار . فتطرق

السمع وشوشة متعثرة ، كبقايا كلمات يذروها الهواء .. أيقنت أن الكهرباء مقطوعة . بدأت دوائر الضـوء الواهنة لبعض الشموع تظهر . لا محل للتراجع ، فهذا هو الوقت الوحيد ـ المتاح لى ـ لأزور زوجتى . وأرى مولودة الأمس .. ابنتى نجوى . اقتربت من مبنى قسم الولادة . بزغ فجأة هيكله الضخم ، كعملاق هائل الحجم ، يحـكم المكان .. لم يكن ممكنا ان انسحب مبكرا من العمل ، فالحسابات الختامية يجب تقفيلها وتسليمها .. صدمنى شخص ما دون اعتذار . تراقصت الأرقام . تداخلت أمام عينى . مددت أقدامى متلمسا السلالم بحذر . بدأت الصعود . أوقفتنى ممرضة مترهلة الجسم : ممنوع الدخول .. الكهرباء مقطوعة .. والقسم كله حريم ..

يرتفع دبيب خطوات منتظمة ، يقطع صاحبها حجرة الحبس ذهابا وايابا . يعلو شخير بعض النائمين كيف استسلموا للرقاد ؟ كيف ناموا ؟ .. دفعت ما يجب للممرضة صامتا ، انفتح طريق الزيارة أمامى ومن قبل كذبت لا تخطى حاجز الزيارة الممنوعة ، فكيف أتردد فى الدفع ؟ .. صعدت للزوجـة الراقدة فى ظـلام دامس . همست : مساء الخير ..

قبضت على يدى : أهلا ابو نجوى ..

اقتربت منها . ناحت : انقذنى من هذا المكان

تداخلت الأصـوات حولنا . انهمك أصحابها فى أحـاديث شتى . ربتت على ظهر يدها بحنـان مشجعا قـالت : « لمـاذا لا تصدقنى .. يجب أن أخرج .. فحص الطبيب سلك العملية فى الظلام .. توقف عندما صرخت » .. انكمشت فى سريرها . جذبت الغطاء حولها : أشعر ببرودة شديدة .. انى ارتعش ..

زجاج الباب المجاور مكسور . أغلقته . تمتمت : « كلها يوم أو يومين .. وتكونين بالبيت » .. هربت من رائحة الدواء الى البلكونة . جذبتنى أنوار لافتة نيون ضخمة لفندق مجاور ، كشاهد ساخر وسط الظلام .. يعود وقع الأقدام المرتفع يصفعنى . احملق فى الظلام . لا ارى شيئا .. **قال المحقق : هل أنت مذنب ؟ هل أنت مذنب ؟ .. اجب ..**

يندفع حسان فى تلاوة القرآن ، كأنه لم يتوقف ابدا : **« فاما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فنيسره لليسرى .. » .. قال زميل : لماذا تقتل نفسك بالعمل .. وكلنا نقبض نفس المرتب ؟ .. لماذا تقوم باعمال الآخرين ؟ .. ماذا تريد ان تثبت ؟ .. ولمن ؟ ..**

يحس لسعة برد تنخر عظامه . يتلفع بالبطانية الصوفية . تنضح الأرض بالرطوبة .. **ايقظتنى أختى الصغرى من نومى باكية . جرح سمعى عويل صاخب . فزعت . ركبنى خوف عظيم .. قالت منتحبة : ماما .. ماتت .. اشاحت برأسها بعيدا . تشبثت بالسرير مذعورا ، كأن الموت سينتزعنى منه ايضا .. ظللت لفترة ارقب انعكاسات الانوار والظلام ، على زجاج باب حجرتنا المغلق ، لا أجسر على الحركة ..**

يتجرع ظلاما كالعدم .. تفجعه وحدته . يلملم نفسه . يتقوقع .. **سقطت فى مكان واسع . كأنه الخلاء . جريت خائفا .. لا اثر لبشر .. لا انيس .. انتشر ظلام ضبابى حولى .. وجدت سلما حجريا .. من أين ظهر ؟ .. لم أهتم .. امتطيته . صعدت لاهثا .. امتدت السلالم أمامى . طالت . تكاثرت .. اكتشفت فجأة بابا خشبيا متآكلا انزلقت منه للداخل .. اصطدمت بجموع**

الجالسين فى صمت على امتداد القاعة الرهيب .. بدأت قوى خفية تهاجمنى . أحكمت الحصـــار حولى .. غلقت المنافذ . لا مخرج .. اندفعت ـ عشوائيا ـ وسط الأجسام المتلاحمـة محاولا الهرب بلا جدوى ..

يدب الخدر فى الجســد المرهق . ينكس رأسه . يستند بظهره الى الحائط البارد .. **تلفتت فى مختلف الأنحــاء .. جدران حجرية ، صماء .. وغرباء انهمكوا فى أداء طقوس غريبة .. فجأة ومض ضوء من الركن البعيد . اندفعت ـ على هديه ـ متخطيا الأجساد المتراصــة . طرت فى الهواء .. انفرج الركن عن فتحة صغيرة . ولجتها على عجل . انبسط المكان أمامى بلا نهايــة . خطوت مترددا .. السماء سوداء . هبت رياح عاصفة حولى . دهمنى رعب قاتل .. وحــدى على حافــة عريضــة ، عالية . تشبثت بالأرض الترابية ، الهشة ، بلا فائدة .. ازداد هلعى .. المكان منحدر .. زحفت أكوام ترابية ببطء من مختلف الاتجاهات. تقلبت . تحولت للهجوم . كأنى بؤرة حركتها . ضيقت قبضتها حولى . حاولت الفرار بضراوة . بلا جدوى .. هل قدر لى الدفن حيـا ؟ !**

يشعر بيد حسان المولى تربت على كتفه : نحب ان تنــام قليلا ..

يستمر حسان بعد لحظة صمت : غدا يوم حافل ..

يهز رأسه موافقا . يحاول أن يتبينه فى الظلام الحــالك أن يمسك بملامحــه الطيبة .. **صرخ المحقق ثائرا : هــل أنت مذنب ؟ .. هل أنت مذنب ؟ .. تكلم .. اعترف ..**

يشـــعل سجين ما سيجارة فى الظــلام . ينتشر دخانها فى الفراغ . يهمس حســـان : هــل اتفق الأقارب مع أحــد كبار المحــامين ؟

يجيب الرجل : طبعا .. طبعا .. هذا مطلبنا منهم ..

يغمض عينيــه ، تعلو دقــات صـــداع رهيب بالرأس .. **قالت ابنة العم : أربعون جنيها معى .. تحويشة عمرى .. لك .. للمحــامى ..**

يصرخ فجأة حسان : هل سيفرج عنا غدا .. فى جلســة المعارضــة .. أم .. ؟

يقاطعه مهدئا : سيفرج عنا طبعا .. ان شاء الله ..

يحس أنفــاس حســـان اللاهثة ، تتلاحــق . تخفى انفعالا عنيفا .. **وسط الجبال بين الصخور . حدث التحول أصبحت مجرد رقم ضخم على الملابس القاتمة .. رقم بين أرقام عديدة .. تتناثر الأرقام ــ البشر بين الصخور كالبقع .. تسيطر الشمس الحمراء على الجمع بقســوة . تلهبهم نارها . تتخلل أشــعتها ذرات غبار أرضية فتبدو الوجوه ضارية ، منفردة ، مغلقة .. كل يحمل فأسه . يتحرك ببطء . يكسر الصخر .. هــل أكسر الصخر أم يكسرنى ؟ !**

ينوح حسان ، كمن يستغيث : لا اله الا الله .. لا اله الا الله..

يجهش فجأة بالبكاء . يتعثر صــوته : لمــاذا العذاب ؟ .. لمــاذا ؟ .. ماذا فعلت يا ربى ؟ .. ماذا جنيت ؟

يتنهد الرجل . كأن بكاء حسان يفرج كربته .. **قال رئيس**

العمل : الاتهام باطل .. لا أساس له .. لكن الاجراءات .. أنت تعرف .. لابد أن تأخذ مجراها .. ثم يكون الفرج ..

يرتفع صـــوت حسان بالتـــلاوة قويا . ثابتا : ((**ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ، فان مع العسر يسرا ، ..))**

تشتعل عيناى بالدموع .. **صرخ المحقق هادرا : أجب .. هل انت مذنب ؟ ! .. هل أنت مذنب ؟ !** يكاد الشك يتسرب الى أعماقى .. اذا لم اكن مذنبا .. فهل يسجن برىء ؟ !

مجلة الهلال ــ اغسطس ١٩٨٠

ليلة فى كوخ مهجور

هبط على القرية فجأة ، كأن الأرض لفظته من أعماقها ، او كأن السماء قذفته من عليائها ، فسار بين دروب القرية بهيئته الغريبة ، يبحث له بين بيوتها عن مأوى ، غير ان اهالى القرية اغمضوا اعينهم عنه ، ولم تنصت آذانهم له ، فلم يجد له مكانا الا فى كوخ مهجور قرب حقول القمح الممتدة على طول الترعة ، فقر رايه على المكوث فيه ولو الى حين .

كان الكوخ بعيدا ، منعزلا عن منازل القرية ، قائما فى الوقت ذاته على مجموعة من عيدان الغاب تندمج فيهـا سيقان الذرة لتشكل للكوخ جدرانا متينة . راى فى جانب منه حشية من العشب محاطة ببعض الملابس القديمـة . اخذه العجب لوجودهـا . لم يتردد . ارتمى عليها رقد منهكـا . خلع نعليـه المتآكلين . مد ساقيه ــ الملوثتين بالأتربة ــ فى استرخاء لذيذ . كور صرة ملابسه تحت راسه كوسادة . لم يهتم بأشياء كثيرة تملأ اركان الكوخ . قبل ان يغمض عينيه احس شيئا يتحرك بجواره . دارت عينيه فى خوف على عجل .. تنفس بارتياح .. كانت قطة سمراء ، نحيفه : ظلت تتمسح فيه لفترة طويلة . ربت عليها بحنان . مضت يده تتحسس شعرها الناعم ، وهى مستكينة لمداعبته .

انقضى من الليل الكثير . خيم على القرية صمت رهيب . خيـل اليه انه يسمع فى الخـارج خطوات مسرعـة . اضطجع على الحشية . مد نظره للأمام خلال الظلام . لم يطل انتظاره . اندفع من باب الكوز رجـل طويل القامة ، حاملا بين يديه عده اشياء مبهمة . وضعها قرب المدخل .. بدا له أن هـذا الشخص يعرف جوانب الكوخ جيدا . همس فى نفسه : لعله كوخه .

الرجل الطويل يقف مذهولا ، يرقب هـذا المضطجع على الفراش البسيط مستنكرا . نهض الغريب رافعا عينيه محملقا فى هذا القادم الذى أزعجه من راحته ، تظهر له وجه الطويل تحت اشعة القمر اليسيرة رهيبا ، قال مبررا فعلته : وجدته مهجورا !

كان صوته أشبه ما يكون بمواء القطة الرابضة عند قدميه . قـال الرجـل الطويل بعد أن استراح على الحشـية : من اين أتيت ؟ !

تأكد للغريب أن هذا الشخص صاحب الكوخ لا محالة .. تسللت يده تعبث بشعره الاشعث .. بدا الاطمئنان يعاوده : من بعيد .. من مكان يتوه الانسان فى الوصول اليه .

تناول صاحب الكوخ مصباح كيروسين من احد الأركان . اشعله نظر على ضوئه طويلا الى الغريب . بدا انه ارتاح لما لمس فيه من هيئة شاذة .. صـاح كأن خاطرا ما أزعجه : ومـاذا ستفعل ؟

رد الغريب فى رجاء : ليس لى مكان أذهب اليه .

مالك الكوخ يعض أصبعه فى عصبية ظاهرة : لم أتيت الى دون كل الناس ؟

فكر الغريب لبرهة فيما ينتظره لو خرج .. لو طرده هذا الرجل من كوخه . لن يجد فى الخارج سوى الظلام والضياع . قال متوسلا : لم يريدنى الفلاحون بينهم ، وكوخك كان مهجورا ..

انفرجت اسارير المالك . بدات ابتسامة شاحبة على شفتيه : لم يريدوك بينهم ..

قهقه ساخرا .. استمر يقول : من يدرى قد يكفينا كوخ صغير ، وطعام قليل ..

صمت قليلا . استطرد بعد لحظة مشيرا بأصبعه فى شبه تحذير : ستعيش هنا اى وقت تشاء .. لن أسألك عن ماضيك ، وبالتالى لا تحاول أنت سؤالى !

كان اتفاقا عجيبا .. لكن الغريب وافق عليه ، شاعرا بالراحة .. الراحة الحقيقية لأول مرة بعد يوم طويل ، شاق .

انتبه الى المالك الطويل يقول : اظن اسم الانسان ليس سرا فى ماضيه .. على كل حال اسمى سيد .. سيد الصفتى ..

ابتسم الغريب ابتسامة كئيبة . قال : وانا اسمى .. اسمى .. اسمى حمدون .. حمدون ..

اخرج سيد طعاما مما كان يحمله . دعاه للاشتراك معه . لم يرفض . لم يتحرج . أكل معه ، وقطته السمراء النحيفة بجواره ، يمدها بالفتات بين لحظة واخرى ، فتهجم على ما يقدم لها بشراهة شديدة ، كأنها مثله لم تذق طعاما طوال يومها الا معه.

نفض سيد عن يديه بقايا الطعام . نهض .. غادر الكوخ .. عاد بعد عدة دقائق حاملا كوما صغيرا من سنابل القمح الضخمة ، الممتلئة . وضعه جانبا . احضر حزمة من العيدان الجافة . أشعل

عود ثقاب . وضعه عليها ، فأمتدت النار اليها . عندما توهجت وضع سنابل القمح عليها . راح يقلبها من حين لآخر .. بعد فترة أخرج من النار بعض السنابل التى انضجت النار حبات قمحها . فركهم بين يديه فى مهارة . أعطى حمدون ملأ يده من الحبـــات الخضراء الناضجة . همهم بصوت متحشرج : خذ .. انها فريكة لذيذة .

تمتم حمدون شاكرا . أخذ يمضغ الحبات ببطء ، بينما ينسبات فكره الى بعيد .. أما سيد فقد مضى هو الآخر يمضـــغ بعضا منها ، محملقا فى النار الصغيرة .. ومضت عيناه ببريق خاطف .. فجأة انهال على النار بالتراب . اطفاها حانقا ، دون أن يدرى حمدون لذلك سببا .

ظل سيد بعد ذلك ساهرا لا يتكلم ، شارد الا ينطق ، حتى بدا أنه يهيم فى عالم آخر يجد لذة أكثر فيه .. أما حمدون فقد نشر جلبابا قديما — كان يحمله معه — على الأرض . تمدد عليه .

تفكيره يسرح الى ماضيه ، فيعتصر الخوف كيانه ، ينتقل منه الى حاضره .. الى سيد الذى أثار فضـــوله بتلك الهالة الغامضة التى تحيطه ، فيشعر بالحيرة ، ثم ينام .

والقطة السمراء تأبى أن تتركه فتنام هى الأخرى قرب صـــدره .

تنبه حمدون على رائحة شيء يحترق — تزكم انفه ، شعر أن القطة قد انسلت من جواره ففتح عينيه . بهرهما ضـــوء شديد يأتى من ناحية باب الكوخ ، نهض منزعجا ، انها النيران وجدها تغطى كل شيء أمامه ، الرياح تمضى بها لتزيد رقعتها .. كانت

حقول القمح حين جاء مغطاه بطبقة صفراء لوحتها أشعة الشمس، تتمايل فى نشوة مع النسمات العليلة ، اما الآن فقد تحول كل شيء الى لهيب أحمر ينتشر فى سرعة — ليدمر محصــول القمح ويحيله الى رماد .

بدأ الدخان يحجب وجه السماء خيل اليه أن القرية بدات تصحو من غفوتهـا لتواجه النار ، وتحـاول انقاذ القمح الذى سبقتهم النيران الى حصاده .. تلفت حوله باحثا عند سيد الذى لم يكن فى الكوخ حين صحى — وجده يستند على جدار الكوخ ناظرا الى النار فى بلاهة . مضى اليه صاح فيه : « هيا .. دعنا ننقذ ما نستطيع » .. لم يكن سيد ينصت اليه ، هزه من كتفه ، كرر نداءه .. يبدو أن سيد قد سمعه هذه المرة لأنه نكس راسه . هبطت دمعتان على وجنتيه . قال بأسى : نالت ما تستحق !

تاهت نظراته فى النيران ثانية . صرخ حمدون فيه : دع الكلام .. هيا نفعل شيئا .. النار تشتد .

واجهه سيد بعينين محمرتين ، جاحظتين وانف منتفخ . قـال وهو يتميز من الغيظ والانفعال : لقد نال هؤلاء النـاس ما يستحقون .. الا تسمع .. ؟ !

كان حمدون غريبا عن القرية . تساءل مندهشا والحسرة عليهم تملأ قلبه : حرام أن يضيع مجهود شهور فى لحظات .. قاطعه سيد بصــوت أجش مرتفع ، يفوح منه الحقد ، وتقطعه المرارة : لقد قتلونى .. نبذونى .. احتقروا حياتى .. اتعرف لمـاذا ؟ ! ..

ضغط على ناجذيه بعنف .. فاضت عيناه بالدموع .. ارتعشت شفتيه ، فغدى وجهــه كريها .. اســتطرد بصــوت

كالفحيح : خانتنى امراتى مع الكثير منهم .. لكنهم لو يرحمونى .. لم يرحمونى ..

ثم بحسم : قتلتها .. لكنهم ما زالوا احيـاء .. فعلتهـا لاستريح .. راحة لم اشعر بها من قبل ابدا ..

استكانت ملامحه . ران عليها الهدوء .. مضى يتنفس بعمق من دخان الحريق مستشعرا الراحة .. اما حمدون فقد هاله هذا الاعتراف ، وروعته هذه الجراة . لقد صـدم فى كل شىء ، حتى توقف تفكيره .

احس ان الأرض تميد تحت قدميه . لم يعد قـادرا على الحركة .. النار ليست امامه فقط انها مشتعلة فى كيانه . دارت الدنيا امام ناظريه ، لم ير شيئا امامه سوى ماضى يسعى للهرب منه . تمثل له حقل برسيمه وابقار جاره اكلت منه الكثير .. حين شاهد ذلك قال لجاره : « ابقارك اكلت برسيمى » .. اجابه جاره وفى عينيه بسمه : « انها ابقار » .. ولا يدرى حمدون كيف تطور الأمر حتى وجد نفسه يضرب جاره بالفأس فيشق راسه ، ويسقط الجار مقتولا لساعته .. ويتذكر اهل القتيل يسعون وراءه مطالبين بدمه .. انه يسمع ضجيجهم ، واصواتهم المتنافرة ..

انتزعه مواء قطة من ماضيه ، ولا يعرف لم احس انها هى .. قطته السـمراء ، النحيفـة .. لعلها تواجـه الموت بين هـذه النيران .. جرى كالمجنون ينقب عن القطة فى كل ركن .. يجب ان تعيش ، انها أول صدر يحنو عليه .. صوتها يأتى من هناك .. شبح القتيل يهرول وراءه سـاخرا .. ازداد هياجا .. اخترق مجرى ماء جاف يشق الحقول . اعواد القمح تهوى من حـوله

محترقة . الدخان يكاد يخنقه . الحرارة الشديدة تجعل العرق يغرقه ، وهو لاه عما حوله .. فجأة رآها تجرى مذعورة ، تمسك النار بتلابيبها . ارتمى عليها . احتضنها بين ملابسه الجافة . لفها عليها حتى يطفىء نيرانها .. أقدام ثقيلة تقترب منه . أصوات ثائرة صاخبة تحيطه ، كأصوات أقارب القتيل الذين انطلقوا فى اثره . تعليقات غريبة تتناثر حوله : انه هو .. هو الغريب بيننا .. فعلها .. امسكوه .

لم يشعر الا بأعين تنطلق منها الشرر تملأ عينيه ، وعصى غليظة تسقط على جسده فتدميه ، وأقدام ثقيلة تدوسه بلا رحمة .. بين زحمة الألم ، نظر اليها .. الى بقايا قطته .. مسكينة ، وافاها الأجل .. لعل حياته مرتبطة بحياتها ، فهل سيموت ؟ .. أراد ان يرفع راسه ليدافع عن نفسه . لم يستطع حتى تحريكها .. قال بصوت منتحب وضع فيه كل قوته : لم افعلها .. لم افعلها ..

ظل يرددها الى وهنت قوته . خر صريعا وهو يهمس : هربت لأعيش .. فوجدت الموت بانتظارى ..

ومضى الفلاحون .. قرب الكوخ المهجور ، وبينهم سار سيد الصفتى مكبلا بالقيود وسط خفراء البلدة .. كان يقهقه فى انتصار ، ومن حوله جموع ينهشها الغضب .. راح يغيظهم فى قسوة وهو يقول متشدقا بكلماته : أيها الحمقى .. حتى أنتم تخطئون .. انه برىء لكنكم قتلتوه .. أيها الحمقى .. أيها الحمقى .. حتى أنتم تخطئون ..

مجلة الهلال ــ يونية ١٩٧٥

البحث عن مخرج من أرض الضياع

خرج أنيس ذهنى من البيت . امتـد الشـارع الفسيح أمامه .. دخلت الى عالم غريب . الظلام يخنق الأشياء ، يبتلعها ، يكاد يمحوها . الطريق ضيق . الأبواب تغلق فى وجهى . الحواجز تنتصب فى كل ركن . أحاول الهرب من الحواجز الافخـاخ . اجرى مذعورا ، تتلاحق انفاسى ، الهث . انصت لتهشم بعض الأخشاب الرقيقة ــ أو ربما بعض الفروع الجافة ــ تحت ضغط قفزاتى . أزيد سرعتى ..

قال شخص ما : صباح الخير يا انيس ..

تلفت . هز رأسه . حـاول أن يتعرفـه بلا جدوى .. نظراتى للأمام . لا محل للنظر الى الوراء لحظة تأخير قد تعنى النهاية . قوى مجهولة تجد فى أثرى ، تحاصرنى . الخوف يحول ، يفجر يطلق طاقاتى الكامنة فى ساقى اللتين لا تلامسان الأرض من شدة العدو .. كيف تسللت داخلا عما جئت أبحث ؟ كيف شممت رائحة الغدر كفأر فى مصيدة ؟ .. هل يتحول الباحث الى مبحوث عنه بلا سابق مقدمات . فلا يبق الا التشبث بالهرب من الفخ المنصوب ؟

توقف على الناصية . امتدت يده آليا تشد على يد زميله اشرف كامل : **صباح الخير .**

قال اشرف كامل : لى أخ أكبر منى .. بيعيش بعيد عن القاهرة ..

يهز اشرف يدى : يظهر انك لم تنم جيداً ..

وافقه أنيس زهنى بايماءة قصيرة .. **توقفت أمام الباب الجانبى للمستشفى . كان مفتوحا . لم أتردد دخلت . صعدت . بدأت افتش العنابر والحجرات . ثمة دافع خفى يحثنى على الاستمرار .. تحيطنى حوائط مصقوله كالمرايا . اخطو لاهثا فى الممرات اللامعة . قبضت على مقبض باب أول حجرة قابلتنى .. فتحته بعنف . ثمة دكتورة وممرض وبعض المرضى بالداخل . امسكت الدكتورة بعينى : أنت عليك الدور ..**

ارتعبت ، تجمدت ، صرخت مستغيثا . ضاعت صرخاتى مع رائحة الأدوية الفجة التى تثير غثيانى ..

يسمع اشرف كامل : الظاهر أن عربية الشركة .. تأخرت اليوم .. على غير العادة ..

لم يعلق بكلمة . فاجأة هدير فرامل . انتبه .. تتوقف سيارة الشركة الضخمة امامهما . يفتح بابها الأمامى . يصعدان تحيات تقليدية متبادلة . يجلسان متجاورين يظل الكرسى الذى أمامه شاغرا ..

يحملق اشرف كامل فى المكان الشاغر : مسكين .. حكم الزمن الأعمى ..

جلس (ميم) ضاحك الوجه ، لا يحتمل السكوت .. يقتله الصمت . استدار الىباسما : سمعت آخر نكته .. اقهقه قبل

أن ينتهى ، اداؤه شيق ، فى وجـوده تنـدثر الهموم ، ينعـدم التقطيب ، يظل الصفاء الحاكم المظفر ..

يهمس اشرف كامل فى اذن انيس ، كمن يخصه بسر : حد كان يصـدق ..

ينفر أنيس ذهنى . يبتعد .. **يعاودنى رعب لا يحتمل . اهرب من حجرة الدكتورة . اراها تقتفى أثرى . تحـاول اللحاق بى . أدفن نفسى فى أول حجرة تالية .. جثة على الطاولة الكبيرة فى منتصف الغرفة وسط ضوء باهر .. أهى غرفة العمليات ؟ .. أرتعش .. عينان ثابتتان .. الدم ، الدم ، يتفجر من الجسـد المسجى ، يلفنى الدوار . وقع خطوات قادمة . أهرب من باب آخر . صوت الدكتورة القاسى يلاحقنى : أنت عليك الدور ..**

تطلع انيس ذهنى من نافذة السيارة . المرئيات تتداخل ، تتشابك ، تهرب ، تختفى . تحـاول أن تمسك بها ، لكنها تخذلك فى كل لحظة مرتمية الى الوراء ، الى الاندثار .. **نفس الايقـاع اللاهث فى خطواتى . فالسباق مستمر . سقطت فى غرفة أخرى بالمستشفى فجأتنى مشاهد غير متوقعة .. وجوه محترقة . مشوهة . أخرى مجدورة . تغطيها البثور ، ثالثة تختبىء خلف ضمادات بيضاء ، سميكة .. كلها تتجه نحوى تتفحص ، تنقب ، تستفسر ، ربمـا لتحزم امرها فتحدد موقفها منى .. اغلق الباب عليها ، اعزلها .. اشعر بتحركات مريبة قريبة . ارتبك .. أين المفر ؟ ! .**

يرتد بصر أنيس ذهنى يستقر على الكرسى الشاغر امامه ..
فاجاه (ميم) : بافكر اعمل مشروع تجارى ..

بجدية اكول : تشاركنى فيه .. ما رايك ؟

يغمض انيس ذهني عينيه .. دفنت نفسي في أول غرفة تالية . أغلقت الباب ورائي متعجلا الخلاص . حوصرت بمجموعة جديدة من الجرحى . عيون بيضاء ، أخرى بلون الدم . بعضها مفمضة ، أخرى تتعلق بلا معنى . الأبيض يختلط بالأحمر ، يتداخل ، يذوب معه ، ما المعنى الضائع في اللفائف الملوثة ؟

بسط (ميم) الأمر : المسألة سهلة خالص .. هتدفع مبلغ . وانا الباقي .. ونعمل المشروع ..

قرات يوما ان تولستري حكى خرافة شرقية عن رجل يتعلق بغصن يتدلى في هوة عميقة ، كي ينجو من وحش مفترس فوقه ، ومن وحش آخر تحته ، بينما يقرض الغصن جرذان .. كان ينتظر الموت ..

ضحك (ميم) من صمتي .. تساءل : لم التردد ؟ .. فيما تفكر ؟

فجأة لاحظ الرجل ـ المعلق بعض قطرات عسل على أوراق الغصن .. مد لسانه . بدأ يلحسها بتلذذ ..

يقول اشرف كامل : لي اخ أكبر مني .. بيعيش بعيد عن القاهرة ..

عاوده صوت المقرىء الرخيم .. فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .. تحركت جموع المشيعين في صمت . بدأ الشد على الأيدي .. طوت السيارة الأرض . تلاشت ضجة الصخب . دخلوا عالم السكون . الحركة بطيئة كالحلم . الشمس ضارية . هبت زوبعة رملية اكتحلت الوجوه بالصفار . تمت مراسم الدفن على عجل . عود مرهق في الطريق الطويل ..

ـ صباح الخير يا أستاذ أنيس ..

يتعلق بعيني الزميل الواسعتين يرد تحيته تائها .. تذكر قول الأم المأثور . أبوك .. كانت عيناه كالصقر ..

انزلقت في عينيه السوداوين . توقفت في ممر طويل أسفل المستشفى . بحثت ، نقبت ، فتشت عن الباب . رأيته مغلقا .. هل السجن قدر ؟ ثمة سور مجاور . لا مجال للتردد . اندفعت قفزت . طرت في الهواء . ركبت السور . تدليت للجانب الآخر . لمست الأرض المشوشبة . توقفت لوهلة التقط انفاسي . نفس النذر الغامضة تطاردني . جريت مذعورا ..

يقول اشرف كامل : رجع اخي من الحرب العالمية الثانية .. بعد غيبة ثلاث سنوات .. فكر يزورنا **انفتح الطريق امامي . تمهلت . خطوت خطوة ، خطوتين . توالت خطواتي تطوى المسافة متعجلا . تفرع عن الطريق الواسع آخر ضيق . حاولت اكتشاف ما حولي . مساكن قديمة منخفضة ، متلاصقة . نوافذها مغلقة . طلاؤها باهت ، متآكل . أرض الطريق منحدرة تموج بطول المسارة المندفعة بسرعة ، دون أن احظى منهم بمجرد التفاتة .**

يهمس اشرف كامل : على فكرة .. كان اخي بيسوق سيارة كبيرة في الجيش الانجليزى ..

صاح (ميم) منفعلا : افتكر كلامى .. اوع تندم على ما ضاع منك ..

ضاع الطريق من قدمي . هل ضللت ؟ .. جرني الطريق الضيق الى مسارب جديدة . هل وقعت في ارض التيه ؟ .. مشيت ، تقدمت .. سكان البيوت يحملقون في ، يتأملونني . هل

كنت غريبا بينهم ؟ .. كلما توغلت زادت غربتى . لكنى اعرف – بشعور غامض – انى سرت فى نفس الأماكن ، نفس الطرقات من قبل . لا اذكر اين او متى ، لكنه يقين مبهم ، انى كنت هنا فى وقت ما لا استطيع تحديده بدقة ..

يمد اشرف كامل ساقيه امامه : كان الشوق يملأ قلبه الطيب .. لنا . لزوجته ، لأولاده .. **تفكيرى مقيد .. محاصر ، حبيس هذه الطرقات . ثمة شك مقبض ينمو ببطء .. انى ابتعد عن الطريق الصحيح . هذه الأماكن غير مالوفة ، لم اعتدها رغم شعورى بتواجدى فيها ذات يوم ..**

يشعل انيس ذهنى سيجارة . الكرسى الأمامى لايزال شاغرا .. **بسط (ميم) يده ، كمن يعلن حقيقة : لازم نعمل حساب للمستقبل .. للأولاد .. للسنين المجهولة ..**

يخفت صوت اشرف كامل : فكر اخى يفاجئنا .. بنفس السيارة ..

يصمت اشرف كامل .. **تكاثرت الشوارع الفرعية . ندرت البيوت . بدأ التراب يحل محل الاسفلت قل السابلة . خفت الضجيج .. لكن يجب أن استمر . لا املك الا التقدم . التراجع منفى سجن ، اسعى جاهدا للهرب منه بشتى الطرق .**

يكتسب صوت اشرف كامل نبرة جياشة : وصل اخى بالسيارة الى شارعنا .. بدأ يرجع بها ليركنها فى الحارة .. **فجأة .. فجأة تكشف الواقع عن حقائق مذهلة .. انا لا اعود . انى ادوس فى الرمال ، فى اراضى جديدة .. جدران صفراء عالية . ابواب خشبية ، مغالقة صنبور بجوار باب قريب ، ليرتو منه**

العطشى . الليل يزحف متمهلا على هـذا الركن المهجور انى .. انى فى مدينة الموتى ..

اشرف كامل يرقب انيس ذهنى .. تأكلنى عيونه . قالت الأم : ابوك .. كانت عيناه كالصقر .. يكمل اشرف كامل بأسى : فجأة دهس احد أولاد الحتة الأشقياء ..

انساب صـوت المقرىء فى الجمـع المحتشـد .. الهاكم التكاثر .. حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون على اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين . ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ..

يمط اشرف كامل شفتيه : مات الولد .. طبعا مات .. اما اخى ..

الافق تملأه المقابر .. تتناثر شواهد كثيرة فى العراء ، فى الصحراء . تنتصب الجدران حول بعض المقابر الاخرى . يتبعثر الصبار . تختبىء الزواحف . الكل يتوه فى ضباب صفراوى .. اخشى مقدم الليل على فى مثل المكان . ادق الابواب الموصـدة . اهز احد الأبواب الحديدية المحكمة الاغلاق . انادى . اصرخ وحدى فى خلاء لا نهائى بلا جـدوى ، استنجد بالاحيـاء فى عالم الموتى وما من مجيب ..

يهز اشرف كامل راسه آسفا : صدقنى .. قبل أن يقبضوا على اخى .. فقد عقله .. جن .. **جذبتنى الأم من اذنى بشدة : تعال .. نزور ابوك فى المستشفى ..**

الظـلام يخيم ، يبتلع . يسـيطر . ارغب فى بصيص من

الضوء .. مجرد خيط رفيع ، يخترق السواد القاتم . ينير طريق العودة .. ما من شعاع .. الظلام يولد . يتحرك . يبعث حياة من المجهول .. تندفع عشرات الجماجم البشرية بعظامها البارزة ، في اكثر من اتجاه تناور ، تهاجم ، تتراجع .. توابيت الموتى ، تعتلى الفضاء ، محمولة على اكتاف الظلام تتهادى ، تتمايل ، تتحرك للأمام .. اصوات المقرئين تتداخل ، تختلط . تضطرب وحدى في متاهة يحكمها الظلام بالخوف الرهيب ..

تمتد يد أنيس ذهني بحركة لا ارادية الى الكرسي الذى أمامه . تدلت يده في الفراغ وتنبه .. **قال له الزملاء : (ميم) تعيش انت .. أزمة قلبية .. وانتهى امره ..**

يسرح اشرف كامل ببصره من نافذة السيارة ، الى الفضاء الخارجي الفسيح : لى اخ اكبر مني .. يعيش بعيد عن القاهرة ..

اجرى ، الهث ، اتعثر ، اقع ، انهض ، اتابع الجرى . تعاودني اشارة الدكتورة : انت عليك الدور .. ما الجدوى ؟

لا مهرب .. لكن يجب ان استمر في البحث ، لابد من مخرج من هذه المتاهة ، من الطرق المهجورة المظلمة ، الى الطرق المطروقة المضيئة . يجب ألا تتوقف المحاولة .. ثمة يقين غامض ــ احسه ــ بوجود مخرج في مكان ما .. فلأداوم البحث عنه دون كلل .

مجلة القصة .. سبتمبر ١٩٧٦

ليس الوقت متاخرا دائما ..

يخترق حنفي الطريق كعادته متمشيا على مهل .. الطريق متعرج طويل يبتلع الظلام اغلبه .. كان يخشى أن تنزلق قدمه في بؤرة ماء غسيل ، يداريها الظلام ، فيتطاير رشاش الماء ، ليلوث بنطاله الوحيد ، أو تطمس الطين لمعة حذائه المغبر بالأتربة ..

يصل لعتبة داره . يتنفس الصعداء . يتوقف . يلقى نظرة على الطريق . يتسرب بصيص الضوء من الأبواب النصف مغلقة ، فيلقى ظلالا شاحبة على الأرض السوداء . يسمع امرأة تلعن أجداد ابنها الشقي . يهز رأسه بلا مبالاة . يدخل البيت ، فيسقط في ظلام حالك . تهب عليه رائحة عشة الدواجن . يصعد السلالم المهدمة ببطء . لم يلمس الدرابزين الخشبي المخلخل . يدخل شقتهم مغتما . يواجه أمه ، تحيط عينيها الحزينتين هالة سوداء . يلقى التحية ساهما . يندفع كالمنقاد الى حجرة النوم .. يفترش اخوته الخمسة الحصيرة الصفراء الكالحة . يغطون في نوم عميق . تجذبه رائحة العرق النفجة مختلطة برائحة بق .

ـ حنفي .. حنفي ..

ينصاع لنداء ابيه . يدخل حجرته بلا ارادة . يضطجع

الأب على الفراش عندما يراه . يصرخ فيه فجأة : تختفى منى يا ولد .. وترجع ولا تتكلم ..

عندما يصرخ الأب فالنظرة الى الأرض كسيرة ، والكلام مآله الموت ، ولا معنى للاحتجاج ، فالرجل رغم مرضــه لا ينزاح عن فتوته الكريهة ..

يأمره الأب فى الصباح : تقابل عمك حسان .. تطلب منه قرشين .. فاهم يا أبن ..

يصيب جو الحجرة ركود . يغرق الغرق الجسد . تطفو رائحة شىء عفن .. يهز حنفى راسه موافقا ..

فيصرخ الأب ثانيــة : انفضــل ذاكر .. وحيــاتى ما أنت نافع .. وحياتى ..

يعود حنفى الى حجرة اخوتــه . يرمى كتبــه وكشــكول محاضراته على ترابيزة صغيرة ، تتكتل عليها كتب اخوته . يغير ملابسه بينما صوت أبيه الهادر ، الجهورى ، يلعن كل شىء .. فيتضاءل ازاءه صوت أمه الطيبة ، تواسى أبيه ، تدعوه لعدم تعكير دمه لأنه مريض .. والرجل سادر فى غيه ..

يتمطى حنفى . يتمدد بجوار اخوته . يحس بالراحــة تخدر جســده المكدود .. يملأ الضيق نفسه . لكنه يندهش .. انه لا يثور .. فقط يود لو يغمض عينيه ، وسيعد لها المولى ، فلن يحكم على الدنيا أبدا بالفناء العاجل ..

يتثاءب . يغمض عينيه .. يتلاشى تدريجيا صــوت أبيه وأمه . لم تعد رائحة العرق العنيفة تثقل عليه . أو يضجره تتابع

انفاس اخوته الرتيب .. تحرك مبتعدا فى هدوء لينتقل من طيات الظلام الى اشراقة النور ساطعة .. فجأة يوقفه سؤال : لم يصر الوالد العجوز على اضطهادى المستمر ؟

سمح للسؤال أن يمر فى سلام قبل ان يخنق انطلاقه خاليه.. **سار فى الطريق اللامع النظيف . اشار له الخلق باعجاب .. وهو فى تواضعه خجول . لا تحيد نظراته عن ارض الطريق ..** ينضح على جثة السؤال القديم آخر وليد : لم لا ارفع عيناى فى أبى .. واتحداه ؟

وكما عبر السؤال الأول فكره عبور الكرماء ، مر الثانى دون أن يثير ضجـــة .. **عاد الى شقتهم فى حى آخر راقى بالمدينـــة الواسعة .. نظافة .. نظافة بلا حدود .. تقلب فى سرير كانه الجنة ،** .. يشعر بلدغة فى مؤخرة راسه .

يحك قفاه بقوة . فيسحق بقة تحت ضغط اصابعـــه .. **غادر الفراش الوثير الى حجرة مكتبه الانيقة .. هدوء مطبق ،** يشرخه صوت امرأة تلعن اجداد جدود ابنها الشقى ..

يسند جانب ساقه على الحائط ، فيرتاح لرطوبته . يتنهد بعمق يفجعه صوت أمه المولول : ابو حنفى .. أبو حنفى .. ما بك يا ابو حنفى ؟ !

تمتد نظراته عبر زجاج النافذة المحطمة الى السماء المفتوحة، الواسعة .. يحاول أن يعاود النوم ، لكن امه توقظه . تنوح بوجه حزين : حنفى أبوك مات يا حنفى ..

تجهش الأم ببكاء مر .. حنفى يتساءل غير مصـــــدق : أقولها واقع ام مجرد حلم عابرا ؟ !

لا يدرى حنفى كيف انقضى نهار يومه الجديد .. كل ما يذكره اشتات متناثرة من مشاهد شتى ، لا يقدر على الربط بينها ، او جمعها فى كل واحد .. فى **الصباح قابل عمه حسان . تحجرت عيناه الضيقتان عندما أخبره بطلب ابيه الأخير . كور شفتيه . اعطاه النقود بلا نقاش .. ثم تقفز الى مخيلته مشيته الكسيرة تحت الشمس الحارقة ، فراغ يحط عليه الخراب ، آنسته فيه حشرات شاردة بلون الرمال الصفراء ..**

تحملق فيه اعين الجيران . وسط سرادق مزعج ، طويل . تشد الأيد على يده ـ بحرارة ـ تواسيه . يهز راسه ببلاهة .. **خرافة ما يقولون ، ولاشك اصاب الناس الجنون .. لم يواسونه ؟ !**

يتطلع الى الجالسين فى الصفوف الطويلة بخشوع ، ينشد الجواب .. تفاجئه همسة خجلى : « كان عم عوض رجل طيب » .. اراد ان يصرخ فى الرجل **عوى الصوت فى أعماقه ، مترنحا ، مهزوما : لا تصدقوه .. لا تصدقوه .. الرجل أبى وانا اعرفه .. فلا تصدقوه .. انه مثل اى كائن يعيش .. لا تكذبوا .. وتقولون كان ..**

يشد رجل على يده . يخصه بالقول المأثور . يجلس الرجل على كرسى قريب من وقفته . يغمض عينيه . يعض شفته **السفلى** .. فجاة تتشكل على وجهه ابتسامة كبيرة . ينتبه الى الجو الحزين المحيط به . يتلفت مذعورا . يوقن أن أحدا لم يره ، فيغمض عينيه من جديد ، فرحا بانتصاره الصغير ..

يبتسم حنفى . تتحول ابتسامته الى ضحكة مجلجلة ، تفيض بالأسى ، يكاد يستلقى من شدتها على ظهره .. كان كل

عذابه ، كل معاناته ، كل حياته تتفجر فى لحظة الضحك المفاجئة ، كسجين ظهر له لوهلة منفذ للخلاص ، فتدفقت من خـلاله كل مشاعره المكبوته ..

يتهامس القوم بحزن مشوب بالفضول : مسكين .. المسكين فقد عقله .. اصابه الجنون لموت أبيه ..

واذا الضحكة تتحول فى حلقة الى حشرجة . تغيم عيناه بالدموع . يتشبث بصره بالبيوت القديمة المتلاصقة ثم تدب على الطريق المظلم ، المتعرج الملىء بأفخاخ متعددة من بؤرات الميـاه الراكدة ، واكوام القاذورات المتناثرة التى يتزاوج حولها الذباب بكثرة .. ثم تغزو مجـال رؤيته وجوه الجيران .. هيكليـه ، شاحبة .. بينما امرأة تلعن اولادها مولولة ..

يتنفس بعمق كمن يكاد يختنق .. تفجعـه رائحـة العرق العطنة وسط العظام البارزة ، والعيون الغائرة .. فيعوى الصوت من جديد ، فى أعماقـه المعذبة بيأس قاتل : صـدقونى .. لم يمت .. فكل شيء على حاله القديم .. كل شيء على حالة القديم .. ولم يتغير أى شيء ..

مجلة الهلال — فبراير ١٩٧٩

الصمت .. الصمت ..

يقفز عوض امين الى الأوتوتيس بلا مبالاه . وهو يوشك ان يتحرك . ينحشر بين المتعلقين ببابه الأخير .. يتمنى فجأة لو يتوه وسط الظلام ..

يتقدم الى داخل الأوتوبيس بصعوبة . يمسك بمسند أول كرسى قابله الى يمين الباب ، كغريق يتشبث بطوق النجاة .. الغريق معروف ، لكن اين النجاة ؟ !

يجلس على الكرسى شاب اسمر الوجه . يتناول منه مظروف اوراق عمله المتأخر . يهز عوض راسه شاكرا يتساءل فى نفسه : لماذا يبتسم ؟ !

يرفع وجهه لأعلى . الجو حار خانق . الابتسامة بعيدة المنال .يتنفس بعمق . يحس بعبء ثقيل يجثم على صدره ، يعاوده .. يتعلق بصره بمصباح العربة المعطوب . فيرى اسلاكه الملتوية مدلاة للخارج كامعاء هجرت مكانها التقليدى فى بطن احدى الجثث التى فارقتها الحياة ..

يعض عوض شفته السفلى . يكاد يدميها ، فعودة الأحداث الماضية تئورقه . تثير اعصابه ، فيسعى للهرب منها ، حتى

لا ينفرد بنفسه ، أو يواجه ذاته .. يشب على أطراف قدميه ، ليتيح الفرصة لمن وراءه ليمر . رغم هذا يصدمه شخص بكتفه اثناء مروره . يحتمل الصدمة صابرا ، دون تذمر ، فللركوب تقاليد لا يجدى معها التذمر أو تفيد فيها الشكوى . يتحرك الأتوبيس . يتحرك عوض خطوة للأمام تحت ضغط الواقفين وراءه تلاصق ركبته ساق الشاب الأسمر الجالس امامه . يبتعد قليلا عن فتاة تحمل فى يدها منديلا معطرا ، تقربه لأنفها من حين لآخر ، كمن تخشى أن تصيبها ، حرارة الجو باغماء ، أو لعلها مريضة لا تحتمل .. زكمت انفه رائحة دواء يعرفها جيدا .. يتحامل يتماسك . ينأى ببصره الى تلميذ شاهده يتمدد ليملأ الفراغ المتاح بجوار الفتاة .. يبدو انه تلميذ بالمرحلة الثانوية ، ظهر هذا من كتبه التى يحملها فى يده ..

يحس عوض بشىء يداعب شعره ، بينما امتدت ذراع طويلة ، معروقة — غزيرة الشعر تمسك بالنافذة .. يتلفت وراءه .. ينسدل كم جلباب واسع — لفلاح يقف خلفه — الى أسفل ، ارتفعت ذراعه للنافذة . يبعد رأسه قليلا عن اليد المعروقة .. لكن اليد لم تفارق خياله .. ليست يدا واحدة .. بل ..

تنضح بعض حبات العرق على جبينه . يزداد جسمه لزوجة . يمط شفتيه بقرف . يخرج منديله بصعوبة ليجفف العرق ، فينحشر بجواره — فجاة — شاب طويل القامة ، ضخم الجثة يرتدى بنطالا بنى اللون ، وجاكته زرقاء قديمة . يتراجع عوض بجسده . يميل نحو النافذة تحت ضغط هذا الراكب . يحاول أن يتماسك أن يحفظ توازنه .. لكنه يكتشف — فى ذات اللحظة — انه خدع خدعة وضيعة ، وأن يدا بشرية تتسلل خلسة

الى جيبه .. يصرخ . تمسك يده باليد الخارجة من جيبه : سرقونى .. سرقونى يا خلق ..

تملصت يد السارق من يده بسرعة وسط الاضطراب المفاجىء . تعلقت به العيون . تترقب بحذر يأكلها الفضول فى انتظار ما يتمخض عنه الموقف الوليد .

يمد عوض امين يده فى جيبه غير مصدق . تغوص اصابعه فى قاعه الخاوى .. تأكد انهم سرقوه .. لكن من السارق ؟ ! ..

لم يكن بجواره الا ضخم الجثة .. انها يده بأصابعها الغليظة .. يعوى عوض غاضبا : « سرقتنى .. سرقتنى يا ابن » .. يذهل الشاب لم يتحرك . فهل هذا اقرار بالذنب ؟ ..

لعله يخفى المبلغ المسروق فى جيب جاكتته الزرقاء .. يسقط عوض يده فى الجيب المنشود .. يتوقف .. لم يجد الا الفراغ .. فهل خدعه بصره ؟ !

يتساءل الفلاح : كم المبلغ المسروق ؟

يرد تلقائيا : ربع جنيه ورق ..

تنبت ابتسامة على وجه الجالس امامه ، . يتمالك المنتفخ الوجه نفسه . يتشجع . يتحدى : ها .. لقيت حاجة يا افندى ؟! ..

اصبح الصدق بعيد المنال . اهتز الثبات وسط الزحام .. بعينيه رآه .. كان كل شىء واضحا كالجثة المسجاة فى صمت .. لكن كيف يثبت رؤيته ؟

تمسك عيناه بعين ضخم الجثة فى اتهام : يدك كانت فى جيبى ..

كانت عينا اخى ذابلتين : ستعيش .. ستعمر بيننا طويلا أكثر مما تتخيل . ستشفى ان شاء الله ..

يتهكم الشاب : وأين النقود ؟ .. أوجدتها معى ؟ !

يتشبث عوض باقواله : انا شاهدت ..

يقاطعه : اين النقود .. اين النقود ؟ ..

يتطلع عوض الى العيون المجاورة . يطلب العون .. بينما تتلصص العيون فى حذر ، لا تجرؤ على التلاقى الحزين ، مكتفية بالمشاهدة السلبية ، واختلاس النظرات من بعيد ..

ترتفع حشرجة الأوتوبيس . يغرق عادم السيارة ــ باللون والرائحة ــ الراكبين .. ترتفع حرارة الجو . يتساقط العرق .. يستفزه ضخم الجثة : لم صمت ؟ .. انطق .. تكلم ..

يستشرى المرض فى جسم اخى الواهن . يزداد شحوبا .. يسألنى : لم صمت يا عوض ؟ ! .. تكلم ..

أجتر الصمت . اكاد اصرخ : ما جدوى الكلمات ؟ !

يتدخل شاب آخر . نحيف الجسم . يقف وراء الأول . يقول بعصبية : ابحث عمن سرقك .. قبل ان تتهم اى برىء ..

زميل مهنة لا محالة . يظهر عند الضرورة ، فالدفاع حق ، وشد الأزر واجب فى الظروف الصعبة .. ولتسقط فى الصمت وتهنأ .. ولتتمهل يا مسكين .. اياك والاتهام .. فالشاب امامك ناصع البياض .

يتمادى النحيف : انت اعمى .. انظر .. نحن محترمان ..

العمر . الاحترام . السرقة . العيون .. كالومضـــة حدث

كل شيء .. شعرت . التفت . فرأيت اليد الضخمة تسرع بالهرب .. ضاع الدليل فى الزحام ..

يتحرش . يتجرأ ضخم الجثة بمساندة زميله : تكلم .. هه .. تتهم الشرفاء وتسكت ..

عيون الركاب تتفرج ببلاهة . عادم الأوتوبيس كالضباب .. يستمر فى استفزازه : أنت عديم الاحساس رد .. تكلم .. يا افندى يا ..

(قال الطبيب : أملنا فى ربنا كبير .. انما المرض خبيث)

ترتفع حرارة الجو . ينهمر العرق . يتبادل النحيف الاستفزاز : « يبدو أنك تلميذ .. قبل ما تتهم الناس تأكد » .. **تأكدنا من أكثر من طبيب ، وفى أكثر من مستشفى . قالوا : « ربنا قادر يشفى » ..**

يرفع الجالس أمام عوض ، يده أمام فمه . يشجعه على الصمت .. يحذره من الوقوع فى فخ الاستفزاز والرد .. بالصمت يخيب المسعى .. **قال صديق يوما : شعرت بيد اللص .. بعد أن سرق محفظتى .. كان فيها مرتب الشهر بالكامل .. لست مجنونا حتى أضيع عمرى من أجل المرتب ..**

وخزة جديدة فى صدر عوض . تطرق سمعه كلمات مبهمة ، غريب وسط غرباء .. تغرق فتاة المنديل المعطر انفها فى منديلها . تهرب ببصرها الى الجانب الآخر . بعض الركاب يختلسون النظرات خشية أن يضبطها اللصان فيشتبكان معهم . البعض الآخر لا يهتم ، كأن ما يجرى أمر عادى اعتادوه فى المواصلات ..

يلجأ عوض للصمت .. دعهما يطرقان بابك المغلق . حتى يكلا ، أو يدب الغضب ليفجر الحياة فى الأصنام ، **عندما يفيض**

الكيل .. كانت الأبواب موصدة ، عند عودته - كالعادة متأخرا - من الدروس الخصوصية بعد العمل . أشعل عود ثقاب حتى يتمكن من صعود السلم بأمان . كاد يتعثر فى كلبين صغيرين ، رابضين تحت أحدى درجات السلم . وصل للطابق الأخير الذى يقطنونه . أشعل عود ثقاب . أخرج مفتاح الباب من جيبه . فاجأته روائح كريهة نفاذة .. كان براز الكلبين وبولهما يلطخ الأرضية أمام باب شقتهم .. رأى أمام باب الجيران أناء به ماء مسكوب ، وآخر به طعام .. اذن هما كلبا الجيران لا محالة ، تخيرا أمام باب عوض محلا لفضلاتهما . تحرك حذرا . فتح الباب . دخل . أغلق الباب . تأكد أن الروائح الكريهة لا تنفذ من الباب . دخل حجرة أخيه على أطراف أصابعه .. رآه ممددا على فراشه . تخرج من فمه آهات ألم ضعيفة . أمه ممده على سريرها المجاور . لعلها نامت لشدة ارهاقها . عاد الى الصالة . دخل حجرة أخوته الأربعة .. كانوا يغطون فى نوم عميق . غير ملابسه بسرعة . لم يجد لديه أية شهية للطعام . وقف فى النافذة . الكل نيام .. فاجأته وحدته وسط الظلام .. تنفس بضيق . التفت الى باب الشقة . مازال مغلقا ، لكن الوساخات رابضة وراءه . أبعد الباب رائحتها عنه ، لكنها مازالت تمسك بأنفه . انه لا يراها لكنها تملأ خياله .. لعل الخطأ خطأ الجيران ، لكنه لا يستطيع أن يلغيها . فهى موجودة تؤرقه ، تزعجه .. وعندما يغدو الباب مجرد حاجز وهمى ، حيث لا تستطيع عزلتنا المزعومة وراءه ، أن تضيع معالم الوجود الخارجى .. وعندما لا ينجينا الهرب بالاختفاء .. لا نملك الا أن نتحرك الى الامام ، لنزيل أصل البلاء ..

ينتبه عوض الى صرخة الفلاح الواقف بجواره : كفاية .. كفاية يا أخى .. الرجل واقف ساكت ..

يرد ضخم الجثة بعنف : وانت مالك ؟ .. لا تتدخل ..
يساعــده النحيف : يعنى لو اتهمــك بالسرقــة .. كنت تسكت ..

يتلفع الفلاح بالصمت .. يفقد عوض الاهتمام بكل ما حوله ، كأنه لا يعنيه .. فقد اسكت اللصان الفلاح . وغدت السرقــة اتهاما باطلا . وقالوا المرض لا شفاء منه . وتاهت الحقيقة فى أزقة الصمت ..

يعبر الأتوبيس كوبرى أبو العلا . تهب نسمة هواء باردة وسط القيظ . يجنح اللصان للهدوء .. وبعد أن كان الصمت هو المعتدى الوحيد الظاهر ، بدأت تنبت الأحــاديث الثنائيــة الجانبية .. يحملق عوض فى العيون .. كانت العزلة ضاربة ، فشعر فجأة أن وجوده زائد عن الحاجة .. يدفع بصره الى سقف الأتوبيس ، كمن ينشد الخلاص ، جذبته أسلاك المصباح المعطوب ، مدلاة كالأمعــاء البشرية فى جســد هامد .. **لم يصــدق أبــدا ما حدث .. لم يستطع أن يصدق .. قال الطبيب مواسيا : البقية فى حياتك .. شد حيلك ..**

هز رأسه . تشبث بنظارة الطبيب المعلقة على أرنبة أنفه . مشى متثاقلا الى غرفة أخيه .. احتضنه ببصره غير مصدق .. لم اذرف دمعة واحدة .. كنت أسترجع المــاضى . أعيشه . أبعث فيه الحياة .. لكن الواقع كان يلف لى بالمرصــاد ، ينبهنى ، يوقظنى ..

يتوقف الأتوبيس . ينحنى النحيف . يلتقط شــيئا من ارضية الســيارة . يهبط الى الأرض مع زميله الدبى الحجم .

يتحرك الأتوبيس .. يفتتح الحوار الجالس امام عوض : اعجبنى سكوتك ..

يهمس عامل ، يقف بجوار الباب : الشاب النحيف اخذ الربع جنيه عند نزوله .. كان يخبئه تحت قدمه .. يتدخل عجوز مشاركا : انا رأيته وهو يسرق منك الربع جنيه .. لكن ..

– الخير ضاع من الدنيا ..

– اللصوص فى كل مكان ..

تنطلق الألسنة الحبيسة . تتكلم . تثرثر . تتداخل الأصوات لتعزف مقطعا حزينا .. عوض تائه عما حوله .. **عيناه فى عينى أخيه الأكبر . قال له يوما وسط ظروفهم الصعبة ، بعد وفاة أبيه : هناك مشاكل لا يحلها الا الزمن .. فتعلم الصبر ..**

يصرخ التلميذ الواقف الى جواره ، فى الجميع : كفاكم كلاما .. بعد نزولهما تتكلمون .. أين كنتم وقتها ؟ أين كنتم ؟ ! يخيم الصمت للحظة . تشرئب الرؤوس تستطلع الخبر .. يهز عوض رأسه اسفا . يكتشف فجأة أن محطته فاتها الأوتوبيس . فيبتسم بمرارة ..

الطـابق الأرضى

١

تسربت رائحة نفاذة ، حادة ، اول الأمر . عبرت ببطء أجواء الغرفة على استحياء .. كنت عندئذ ممددا باسترخاء على الفراش اتصفح جريدة قديمة . لم اهتم بها .. لكن الغريب ان نفس الرائحة ، عادت بعد فترة وجيزة ، قوية ، ملحة ، مستمرة ، محاولة ان تفرض نفسها على جو الغرفة . نهضت مكرها .. كان اشد ما يزعجنى دائما اى طارىء مفاجىء .. تأكدت ان مفاتيح البوتاجاز وانبوبته مغلقة .. اسرعت الى الحمام .. كل شىء هادىء مستقر .. فتشت اركان الغرفة . تشممت كل جزء من الحوائط والأرضية ككلب بوليسى بحثا عن منبع هـذه الرائحة .. دون جدوى .

جلست على كرسى خشبى قديم ، محنقا .. كانت الرائحة تحكم حصـارها حولى . تخدرنى . تثير غثيانى . تخنقنى .. سقطت نظراتى على الدولاب المفتوح وبقية قطع الأثاث المتراكمة . المبعثرة فى أرجاء الغرفة .. اكتشفت فجأة أنى وحيد .. فهل يعانى الآخرون مثلى ؟ .. الآخرون ؟ رباه .. كيف حـدث كل ذلك ؟ ! .. متى تم ؟ !

لم يعد أحد يذكر متى تم كل شيء ؟ .. فنحن لم يكن يهمنا التاريخ لأى حدث ، أو التأكد من وقائعه الماضية .. فهل كان ما حدث اتفاقا نفذناه بدقة ، أم رغبة فردية تفجرت فى كل منا فى وقت متقارب . ليحققها كل فرد منا وفق مزاجه الخاص ؟ ..

لم يعد أحد يدرى .. فقط غدا الأمر كأنه حدث منذ زمن بعيد .. فأصبح كل منا مستقلا بغرفته فى الطابق الأرضى .. حتى أختينا الصغيرتين ، أقامتا حاجزا فى حجرتهما الواسعة فصار لكل منهما حجرة صغيرة ، خاصة ، كالآخرين ..

تعود نفس الرائحة تثيرنى .. ترى هل يعانى الآخرون منها أيضا ؟ ..

الا يستحق الأمر محاولة للاستكشاف ، قد تقود فى النهاية الى مصدر هذه الرائحة ؟ ..

٢

تحاملت . تحركت . مشيت . فتحت باب غرفتى . سقط مستطيل ضوء وسط ظلام الردهة الدامس .. الأفضل الا يعرف الآخرون بخروجى . اطفأت مصباح الحجرة . عم الظلام . اغلقت عينى لوهلة حتى اعتاده .. الجو راكد خانق .. تحسست طريقى بملامسة الحائط . ينبعث بصيص ضوء من اسفل بعض أبواب الحجرات المجاورة المغلقة . وصلت باب الغرفة المجاورة . دبيب خطوات حائرة بالداخل . التصقت بالباب . انحنيت . حملقت من ثقب مفتاح الباب .. كان أخى الأكبر يرقد على سريره ، وسط الفوضى والقذارة . ملامح اشمئزاز متجمدة على وجهه العجوز .. أصبح عجوزا .. منذ متى لم نلتق ؟ .. لا أحد يدرى .. فجعتنى نفس الرائحة الكريهة . هل كانت تنساب من

ثقب الباب ؟ .. سددت انفى بأصبعى بقوة . جريت مهرولا . تخبطت فى الظلام . تعثرت . كدت أقع .. عدت لحجرتى مسرعا . اندفعت الى الحمام . تقيأت بقسوة بالغة ، حتى ظننت اننى سأنتهى لا محالة ..

ارتميت على سريرى منهكا . تحاصرنى نفس الرائحة العنيفة ، المجهولة ..

٣

استيقظت فى الصباح فزعا . ضوء الشمس يغمر الغرفة . نظرت للساعة .. الثامنة ؟ .. لاشك تأخرت كثيرا .. كيف الحق بعملى ؟ .. كيف ؟ ..

نهضت . براسى ثقل غامض . مددت قدمى تحت السرير ، بحثا عن الخف المنزلى . شعرت بابتلالهما .. فتحت عينى المجهدتين . حملقت فى بلاط الأرضية .. طبقة رقيقة من سائل ما ، تلتمع عليه ، كأنه ماء .. بلمسة صغيرة من اصبع قدمى اليمنى الكبير ايقنت أن هذا السائل ليس لزجا .. لبست خفى .. مازلت أتأرجح بين كوابيس النوم واليقظة المفاجئة .. رفعت حقيبة سفر من تحت السرير الى سطح الدولاب .. تثاءبت .. مضيت مسرعا نحو الحمام .. اصاب البلل عدة جرائد مبعثرة على الأرضية .. اغتسلت .. فوجئت أثناء تجفيف وجهى ، بنفس الطبقة السائلة على بلاط الحمام .. لم استطع تحديد مصدر هذا الماء .. ارتديت ملابسى على عجل .. سأتناول الشاى فى العمل .. أغلقت باب حجرتى دون أن ألتفت يمينا أو يسارا .. صفعنى سؤال غريب .. هل توجد ثمة علاقة بين الرائحة النفاذة الكريهة ، وطبقة المياه الناضحة على

الأرضية ؟ .. أكانت الرائحة مقدمة ؟ .. واذا كان الأمر كذلك ، فماذا سيحدث بعدئذ ؟ ..

استنشقت الهواء الطلق بقوة .. تأكدت اننى كنت حبيس نفس الرائحة البغيضة طوال الليل .

٤

فى المساء غادرت غرفتى وسط الصمت . اندفع المـاء معى حال خروجى للردهة الطويلة .. اطفأت النور .. تلمست طريقى ثانية على الحـائط . سمعت خرير المـاء المنساب من تحت الأبواب المغلقة . أبطأت خطواتى . خشيت ان يتعرفها اى من الآخرين ، من صوت ارتطام قدمى مع المـاء المتجمع بالردهة .. انحنيت هذه المرة على ثقب باب أخى الأصغر .. كان منكبا على الطعـام يأكل بنهم شديد .. لكن قدميه كانتا غارقتين فى المـاء .. ارتفعت المياه الراكدة فى الحجرة ــ بلاشك ــ لأكثر من قدم .. تراجعت الى غرفتى متمهلا . أضـأت المصباح الكهربى . كدت أنزلق .. تمددت على سريرى .. تناولت بقايا جريدة قديمة .. فتحتهـا أمامى ، كأنى أتصفحها .. قررت أن أتجاهل المـاء المتكاثر والرائحة الفجة .. كما بدأ من العدم ، يجب أن يعودا اليه ..

رغم ذلك ظلت الرائحة تتفاقم ، والمياه تتراكم .. لم تكن عنيفة كالطوفان . لكنها تتدفق بهدوء تدريجيا . وترتفع ببطء وثقـة ..

مجلة الهلال ــ ديسمبر ١٩٧٩

الفـخ

١

انا سجين ..

الباب مغلق . الستائر مسدلة على النافذة المغلقة .. الليل فى الخارج ـ احسه ـ ينساب هابطا فى موكب هادىء ، حزين .. جدران الحجرة شاحبة ، باهتة الألوان . بعض قشـور الطلاء الجيرية تتساقط من السقف المتآكل ، وتتفتت امام عينى .. كتب مبعثرة بلا نظام على المـائدة الخشبية التى تتوسط الحجرة .. اغطية الفراش تعلو اقدامى وتتدلى على الأرض المتربة .. قطتى الصغيرة تنام بوداعة قرب صـدرى لا تحمل للدنيا هما .

ورغم ان ظهرى يؤلمنى من طول الرقـاد ، فانا لا اهتم .. مددت سـاقى باسترخاء .. مازلت احمـلق فى السقف الذى يتساقط طلاؤه ..

الا ترون ؟ .. انا سجين هذه الجدران الموحشة ..

صالح عبد المؤمن ، المحامى .. سجين ..

ظهرى يؤلمنى مرة اخرى .. تقلبت على السرير . اضطجعت

على جانبى الأيمن .. عينـاى على جـدران الغرفـة فى الركن القريب .. الطلاء البنى ، الداكن اللون ، يعلو قليلا عن الأرض فى خط عريض ، متعرج ، غير متزن .. ارض الحجرة تعلوها طبقة متراكمة من الأتربة .. كم مضى عليها بلا نظافة ؟ كم من الزمن ؟ .. لا ادرى .. ومن يهتم ؟ ! .

نسيج العناكب الترابى اللون يمـلأ الحجرة .. العناكب صنعت من الحائط مرقصا تستعرض عليه براعتها فى الانزلاق هابطـة ، والتسـلق صـاعدة .. نسيج ضخم يغطى الجـزء الأسفل من الركن الغريب .. غشاء رهيب متشابك الأطراف يمتد كالخيمة .. وعلى وجهى تقف ذبابة سمجة تلح على التودد الى .. هششتها .. طارت للحظة ، عادت تحط على وجهى من جديد .

انا لا تهمنى الذبابة ، ولكن يهمنى أن يستمر فكرى فى نفس المسار ، والا ينغص على تفكيرى اى متطفل ، حتى لو كان ذبابة ..

سارعت الى طردها من جديد ، فبعدت قليـلا ، وعادت تلعب نفس اللعبة .. صبرا لادعهـا ترتـاح على وجهى ويطمئن قلبها ، ثم اهبط عليها كالقضاء ، غير المنتظر ..

وفعلا تجاهلت وجودها لهنيهة ، كأن الأمر لم يعد يعنينى ، فجأة تحركت يدى بسرعة خاطفة ، لترتطم بها ، وهى تسـعى جاهدة للابتعاد عن انفى ، فاذا بها تسقط فى عش العنكبوت المخيم بركن الحجرة ..

ابتلعها النسيج الضخم .. نالت جزاءها نتيجة .. نتيجة تطفلها على انفى .. والجزاء نتيجة الخطـأ ، لكن يبقى مدى عدله .. فهل الحاحها على وجهى ثمنه الموت السريع لها ؟ ..

انا لم اشعر يوما بأهمية وجهى او انفى الى الحد الذى يدفع مخلوق ــ ولو حشرة ــ حياتة ثمنا لمداعبته .. فالجزاء اذن ليس عادلا .. وموتها نتيجة ، وليس جزاء ..

٢

لكن صبرا .. الذبابة لم تمت . هى تتحرك وسط غابة النسيج المتشابك .. حركتها بطيئة متثاقلة .. لم تكتشف بعد اى شرك عصيب وقعت فيه .. انها تنشد الخلاص تجاهد بكل قواها لتهرب من الشرك ، وتعاود الطيران من جديد .

اطرافها محشورة وسط الخيوط الرقيقة المتراكمة .. تحاول تخليصها .. **يوما سقطت مثلها** عندما قال صديق مستنكرا : وهل يعرف فرد آخر بلا غرض ؟

السؤال يومها ملأ القلب بالمرارة . وعشرة سنين طويلة اعدمها بلا معنى ، والصداقة أصبحت فى خبر كان .. وعينا القائل تتبجح : الدنيا اغراض يا صاحى ..

ايامنا .. ماضينا . ليالينا الطويلة . أحاديثنا الحلوة . حواراتنا المرحة . معاناتنا معا .. حياتنا سويا ، وتعود تحدثنى عن الاغراض ، وتعمم حكما باسم الدنيا ، وهى منها براء . يعود نفس الصديق يصدمنى : تفتكر أنا ممكن اعرفك من غير غرض ؟ .

ضحك الصديق لكآبتى .. ضحكتك بلهاء مذاقها لاذع كالدموع . والسؤال بسيط قاتل والرؤى الغامضة انكشف أمرها ، ومعرفتنا اذن لم تكن لوجه الله !

٣

كنا ليلتها المشئومة ــ كالعادة ــ فى النادى . كنا عصبة ، أو شلة يلتئم شملها تقريبا فى نفس المكان ، كل مساء .. وبدأ النقاش بالرياضــة والمرأة وانتهى الى المجتمع الواسع وعلاقاته المتشابكة ، وانثنيت ادافع عن المعارف البريئة والعلاقات النظيفة التى يرتاح لها الفرد .. كنت متحمسا مقتنعا ، فأثبت لى صديقى ان اقتناعى خرافة وحماسى اندفاع صبيانى لا معنى له ..

الذبابة تحاول ثانية ، تتحرك خطوة ، لكنها غارقة فى الشرك الناعم ، كما كنت يوم وعاك الصديق عن الاغراض .. صدقونى.. لم اكن كاذبا .. كالأعمى كان مسارى فى الحياة ، حركتى معهم تلقائية ، دورة الأيام الرتيبة تشدنى باستمرار والراحة وسط البشر لم تدعنى أتوقف لأفكر .. كالحمار على الرحى ..

فانا لم افكر يوما فى أمر علاقتنا ، كنت مقتنعا بها ، هى هكذا بلا غرض . حقيقة بدهية لم اتطاول عليها بالنقاش ، كمــا الأرض التى نعيش عليهــا او السماء التى نراهــا .. نعم كانت كالسماء والسماء فراغ عميق ، وفضــاء يصعب تصــوره .. يومها ــ صدقونى ــ سقطت فى الدوامة ..

الذبابة مأزومة فى موقف كريه ــ هى لا تدرى ما يخبئه لها القدر ، لكنها خائفــة متوترة فالموقف جديد عليها .. ويومهــا كنت ــ أيضــا ــ مأزوما ــ فى موقف لا احســد عليه .. فان تفكر .. ان تستيقظ فجاة .. ان تحاول ان تزن الأمور وان تفهم .. فهنا تكمن المــأساة ثلاثون عاما فى الميزان من جديد .. تهزها ثانية .. تغربلها ..

الذبابة تتطلع حولها حائرة . ظنت ان المأزق بسيط ، والحقيقة كذبت ظنها .. كما ظننت ان علاقتى بصديقى هى مركز التفكير .. والحقيقة ان حياتى كلها هى البؤرة التى اصبحت مثار اهتمامى .. فالصديق عرفنى ليستغل امكانياتى الغير ميسرة له . منحته كل شىء باسم الصداقة ، واخذ كل شىء باسم الاستغلال ، والاستغفال ..

اذن لأكن واعيا ، متنبها لكل ما حولى ..

٤

توقفت الذبابة عن الحركة للحظة ، محاولة اكتشاف ما حولها .. فى البيت ابى طريح الفراش . مريض منذ مدة طويلة . اصبح مرضه لأهل البيت شيئا معتادا ، كما كان عاديا أن نهتف بتحية تقليدية فى الصباح والمساء ، كالتى القيها على الفراش فى العمل أو على الجالسين بالمقهى .. واذا جلست معه عندما يوجد زوار فالحوار محفوظ :

ــ صحتك فى تحسن .. هه ؟ .

يجيب متمتما : الحمد لله .. الحمد لله .

نظرة الى علب الدواء المبعثرة بجوار السرير : مواظب على الدواء ؟

نفس النظرة المريضة ، اللاهثة : الحمد لله .. الحمد لله .

العين فى العين لا تعنى شيئا : شد حيلك .. ربنا يشفيك ..

واشد على اليد الهزيلة ، والى النادى انطلق كالنائم ، وكذلك يتصرف اخوتى ايضا كل يعيش حياته .. بل كل تستهلكه حياته ، وتحركه دون تبصر ..

٥

الذبابة اطالت النظر حولها ، وخيوط الشرك المتكاثفة تملأ نظرها .. هل تبحث عمن يساعدها ؟ .. مخطئة .. عليها وحدها يقع عبء الخلاص من هـذه الورطة ، انها مسئوليتها املتها عليها ظروف وضعها الراهن ..

وفى النادى ، مع المعارف .. مع شلتنا صامت .. كنت مستمعا .. وكان كل شيء محفوظ عفن تتكرر .. وخمنت كيف تكون القعدة . وما تخيلته كان ..

أحد الزملاء يقاطع الحوار ، راجيا : راعونا بحاجة بقى .. الواحد طول عمره صابر .

احاديثه عن المرأة مكررة ، غير موجهة لأحد ، لكنها تثير الضحك .. صدقونى .. اكتشفت أن الضحكات جوفاء بلا معنى ، فهل كان الضحك محـاولة للهروب والنسيان ..

وآخر يحكى نكتا لا يغيرها ، والمهم طريقة الالقاء ومن التكرار والاستخفاف يتولد الضحك وثالث عصبى فى مناقشاته خاصـة أزمة المواصـلات وويلاتها الرهيبة ، ورابع يتحسر على ماضى الكرة الذى ضاع ولن يعود ، و ... ليلتها كنت عصبيا ، يطفح من اعماقى — ومما حولى قرف لا احتمله .. كالملدوغ جريت هاربا ، مصدوما ، دون استئذان .

٦

الذبابة تتحرك بعصبية ، دون كلل ، لا تستطيع الخلاص .. كلما ازدادت مقاومتها كلما بدأ النسيج فى ابتلاعها أكثر ، لعلها

تبحث لنفسها عن سبيل للنجاة ، أو طريق للهرب .. وفى الطريق للبيت قابلت زميلا من أيام الدراسة .. شد على يدى بحرارة أهلا صالح ..

حييته بفتور بلا حياة : أهلا .
حتى اسمه لا اذكره ليس مهما ..
كان يهمس : لم نعد نراك ..
ابتسامتى بلهاء ، مصلوبة على فمى : تحت النظر ..
عاد يقول مندهشا لبرودى : ارجو أن أراك ..

اومات براسى متضايقا .. كم مرة تقال الكلمات من باب القول .. كان يعرف اننا لن نلتقى أبدا الا بالمصادفة ، ورغم هذا دار حوار غير منطقى ، ومع آخرين كان يطول أو يقصر حسب الظروف ، ودائما لا معنى له ..

ليلتها كنت أمشى تائها كالمجنون .. الشوارع تفتح أفواهها الضخمة لتبتلعنى فى زحمتها — آلات تنبيه السيارات المسرعة تهزنى ، وتؤرجحنى — البرد يجمد أطرافى فتسرى البرودة فى كيانى المحموم المارة كالدمى تتحرك لافتات النيون المتوهجة تخطف بصرى فتشتت فكرى ، شخص يعتذر عن اصطدامه بى .. لكنى لم اهتم .. وفى البيت القيت تحية مقتضبة على أبى المريض ، واسترخيت على فراشى محاولا أن اريح نفسى .. لكنى لا ارتاح فى أعماقى ما يعذبنى ، وأعرف أن هناك ما يضايقنى ، ولا أستطيع الخلاص .

٧

الذبابة المسكينة مهتاجة ، تتخبط ، كأنها بدات تعى أى ورطة رهيبة هى فيها — الموقف أكبر منها ، يشل تفكيرها ، فتبدد

قواها بلا جدوى ، لكنها تعاود المحاولة ، تجاهد لتخليص جناحيها بيأس ، لا تكف عن الحركة ، والنسيج المرن يقيدها باستمرار ..

وفى الصباح التالى ذهبت للعمل مكدودا ، مرهقا ، رددت تحية الزملاء بأسى .

سألنى زميلى : استاذ صالح .. موضوع احمد زنيهم .. انتهى التحقيق فيه ؟

أنا لا يهمنى هـذا الأحمد أو موضـوعه ، ولا تهمنى انت باشاعاتك المغرضة التى سمعت طرفا منها وتجاهلتها ..

ولكن هـل من المحتم ان تكون المعارك الجانبية هى شاغلنا الأساسى ، حتى يضيع فى زحمتها العمل ؟ .. وهل تتبلور بيننا علاقـة ما ، تربطنا ، أو ترتبط بها .. وما هى طبيعتهـا وما هو شكلها ، فالجهل يا صاحبى هو محصلتى الوحيدة فى مثل المواقف الحزينة ..

أجبته ساهما : التحقيق انتهى .. واعذرنى لأنى تعبان ..

حررت اجازة . غادرت العمل ، والزميل يردد : لا بأس عليك يا أستاذ صالح .. ألف لا بأس ..

ولا أعرف ما قال وراء ظهرى ..

٨

العنكبوت اشم رائحة الفريسة ، فبدأ يتقدم اليها بخطى ثابتة . والذبابة ــ كمن تحس بالخطر الكائن فى اللحظات التالية ــ تصارع بشراسة لتنجو .. كما سارعت بالأمس الى صديقة عمرى فى ركن منعزل على النيـل حيث التقينا . عيناهـا نيلنا النقى

المتجدد . شعرها المنساب برقة على كتفيها وادينا القمحى الممتزج بالتربة الحية واذا سارت يتحرك جسدها الممتلىء على استحياء كأنها تحمل على كاهلها أثقال أجيال مضت ونواة عصور قادمة ..

قلت ساخرا ، قاطعا صمتا طـال بلا معنى : الوقت بيمر بسرعـة ..

اكملت ساهما : جملة محفوظة ..

حتى الوقت فقد معناه . قتلناه بأيدينا ، ثم نعود نؤبنـه ونرثيـه ..

قالت بصـوت جـاد وهى تشملنى بنظرة مستفسرة كمن تحاول أن تستوعبنى : أنت تعرفنى انا لا أحب الجمل المحفوظة..

اعرفك صديقتى ، فأنت الملاذ الوحيد .. والتلقائية مطلوبة عندما يعيينا السأم ، والمشـاعر البريئة تولدها مثل الكلمـات الندية ، فتتوهج فجأة المعانى الجديدة .. فحمدا لله مازال للكلمة معناهـا ..

كالفريق اتشبث كل قواى ، عيناى ملأ عينيها ، واهمس برجاء : قفى بجانبى .. ساعدينى ..

هشت بيدها برقة . تفتحت قسمات وجهها البريئة عن ابتسامة مشرقة : لا تبالغ ..

صدقينى .. أنا لا أبالغ ، فالقرف تجرعته حتى الثمالة ، وسوط المعاناة يلسعنى باستمرار والهوة تحت أقـدامى تكـاد تبتلعنى ، وبدأت أفقد قدرتى على الاحتمال .. وكتب على العذاب وحدى ، ولا أحد ابثه شكواى ، فالكثير من الزملاء هجروا الديار ، وأصبحت أنت الملاذ الأخير ، فهل فى قدرتك ـ يا عزيزتى ـ أن تمنحينى قدرة جديدة على الاحتمال ؟

٩

حانت اللحظـة الحاسمة .. هبط العنكبوت كالقضـاء .
الصورة فى عين الذبابة سوداء ، قاتمة حيث لا مفر منها ولا مهرب،
لقد ايقنت قرب نهايتها ، لكنها لم تيأس ، ولم تتوان للحظـة عن
المحاولة ، كأنها تمتلك أملا عريضا فى الحياة ــ حتى الموت ..

سجينة هى ، لكنها تعاود المحاولة مرات ومرات دون كلل ،
وانا سجين .. كلانا سجينان حتى الموت .. والميزة الوحيدة التى
اتمتع بها ، انى اعرف حقيقـة سجنى ، والم بأبعاده المؤلمـة ،
ولولا الظروف المرة ما انتبهت اليه .. حياتى هى سجنى ، دائرة
محصـورة داخلها حيث لا فكاك ، وانما تصفعنى فى كل لحظـة
انتباه منفصات لا حصر لها .. وحيث لاثبات . فالاهتزاز سمة
الأشياء ، والاختلاف هو الملموس الازلى ــ وحيث لا نمتلك حاسة
جديدة فريدة ، تمنحنا التمييز بين المظهر والجوهر ، فالعـذاب
فى هذا الحبس الانفرادى هو الكائن الحى الوحيد ..

تقدم العنكبوت من الذبابة .. انقض عليها .. النهاية ..

صدقونى .. هذا الفخ منصوب باستمرار .. موجود بانتظار
فريســة جديدة .. لكنى لن انتظر حتى تأتى النهايـة .. لن
استكين ..

ونهضت على عجل ، قائما ، لا تصل بصديقة عمرى .

المساء ــ ٢٤ ابريل ١٩٧٩

اعترافات سلمان الفارسى .. السرية(1)

«للحياة معنى ، ولكن العثور على هذا المعنى ، هو ما تجد نفسى فى طلبه »

زرادشت

اعتراف اصبهــان :

مقطع اول :

« .. اشعل النار .. يلتهب كيانى . اتفانى فى خدمتها . اكاد اتوحد معها ..اقصى شرف للعابد أن يتوحد مع معبوده ، اسعدنى زمنا ان اخدمها .. لكن .. لكن هذا لا يكفينى ..

يتجمع وجه ابى الضخم ، يتشكل على السنة النيران .. اذكره يهمس للجيران : « ولدى سلمان شاب رائع يختلف عن اقرانه .. لولا بعض الأفكار الغريبة ، المتسلطة على ذهنه ..

---

(1) امكن بجهد علمى جبـار ، وبالرجوع الى كتب التاريخ القديمـة والحديثة .. تجميع هـذه الاعترافات بصعوبة بالغـة .. والباحث يحذر من ان المرصود هنا مجرد شذرات ضئيلة ، تلقى بعض الضوء على حياته الحافلة ..

لعشنا ســويا بثروتى الضخمة ، فى ســعادة غامرة .. لو يهجر افكاره .. لو » ..

مقطع ثـان :

اكتب فى اليوم الثالثمن سجنى فى البيت .. وسط الأنغام الكنسية .. كيف حركت هــذه التراتيل أبواب القلب المغلق ، كشعاع الضوء الباهت يتسلل بين الظلمات ..

كنت فى مهمة كلفنى بها ابى ، وهو نادرا ما يحدث ــ فمررت فى طريقى بكنيسة .. لم يجذبنى بناءها الضخم ، وانما الألحان العذبة المنسابة منها برقة .. دخلت كالمسحور .. وقفت انصت « لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصــام والحسد ، وليكن بالله ايمانك » .. افضيت له بما فى نفسى .. غضب غضبة هائلة .. لكنه معذور ، لا يفهم مشاق بحثى .. قيدنى .. حبسنى لكن طريقى ــ الآن ــ واضح .. وجهتى الشام ، كى اتعرف أصل هذا الدين .. اتصلت منذ يومين ببعض النصارى ، ليرتبوا لى أمر رحيلى للشام .. واليوم أجابونى ان استعد ، فيوم السفر قريب ..

اعتراف الشام : مقطع اول :

وصلت الشام منذ شهور .. تعرفت بأسقف الكنيسة ، كى استزيد من أمور هــذا الدين .. قضيت فى صحبته أيــام سوداء .. كان يكنز صدقات الرعية لنفسه .. فكرهته .. واليوم مات .. حضرت الى الكنيسة وفود رهيبة من النصــارى ليشيعوا جثمانه لمقره الأخير .. فقمت اليهم .. كشفت أمره بصعوبة ،

فلما رأوا ثروته المخبأة ، صلبوه ورجموه بالحجارة ، واختاروا خلفا له ..

« ان تعرف الحق .. تعرف الله »

زرادشت

مقطع ثان من اعتراف الشام :

احببت هـذا الأسقف المختار .. ما رأيت مثله زاهـدا من قبل .. يسعى فى الخير دون تردد .. على يديه بدات اتبحر فى أمور الدين .. فلما استقر بى المقام .. حضره الموت فاوصانى برجل مثله بالموصل ..

ملحوظة هامـة :

لم يعثر لاعترافات سلمان الفارسى بالموصـل على أثر .. ربما لقصر المدة التى قضاها بها مع رجلها الفاضل .. لكن المؤكد انه أوصاه برجل فاضل آخر ــ قبل وفاته ــ بنصيبين ..

اعتراف نصيبين :

مازالت أتبحر فى أمور الدين .. لكن ظمأى يزداد .. أسألتى تزداد .. ورجل نصيبين الطيب ، يخطفه الموت فجأة ، فيأمرنى فى الرمق الأخير أن الحق برجل بعمورية بأرض الروم ..

« ما حيلتنا اذا كان العـالم كله مهدد بالموت ؟ .. فلتنصرف اذن الى عملك خاشعا راجيـا ، فيحبـك النـاس ويرضى عنـك الله » ..

القديس اوغسطين

اعتراف عمورية الخطير :

اسجل هنا اللحظات الأخيرة فى حياة هــذا الرجل الرائع .. انه يجمع بين أمور الدنيا والدين .. بدات ــ على يديه ــ بعد طول الزهد ، أعيش رغد الحياة الحلال فامتلك ثروة خــلال شهور قليلة .. يفتح ــ الآن ــ الرجل الفاضــل عينيه . يحملق فى . يرقب حزنى واستفسارى الصــامت . يتطـلع الى الفراغ كمن يستلهم رؤى غامضة .. يهمس بصــوت خافت : النور .. النور من هناك .. مبعوث بدين جديد . ينبثق من أرض العرب .. مهاجرة الى أرض بين حرتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ..

كمن يحتضنى بعينيه : طريقك معروف .. لا تتردد ..

هكذا مات الرجل الخير ..

اعتراف وادى القرى :

هل اقترب ــ أخيرا ــ مرفأ الأمان ، ليستقر الطير المهاجر ، رغم ظلم بنى الانسان ؟ .. لكن كيف وصلت وادى القرى ، وأنــا أنشد أرض النبوءة ؟ .. اتفقت مع تجار من كلب على أن يوصلونى مقابل ما أملك .. لكنهم خانوا العهد ، باعونى الى يهودى من وادى القرى . صرت عبدا .. لكننى رأيت النخل فى البلدة .. فازداد أملى فى تحقيق النبوءة ..

ملحوظة متفائلة :

كنت عبدا للنار وسجين بيت ابى .. فتكشف لى ــ دون توقع ــ دين النصــارى .. والآن صرت عبدا وسجينا ثانية .. أأكون اذا على مشارف دين جديد ، يحقق النبوءة بعد طول البحث والترحــال ؟ ! .

اعتراف المدنيــة :

اشترانى ابن عم اليهودى . رحلنا الى المدينة .. عرفتها .. عرفتها .. كما قــال صاحبى وها هى النبوءة تتحقق .. سمعت أن القول مجتمعون بقباء على رجــل قدم عليهم من مــكة اليوم يزعمون انه نبى ..

ذهبت الى النبى بقباء . انشرح صدرى لرؤيته مع أصحابه . قدمت له الصــدقة التى جمعتها فقال رســول الله لأصحابه : كلوا .. وامسك فلم يأكل .. اذن صدقت الأولى ..

فى اليوم التالى جمعت شيئا . قلت له : رايتك لا تأكل الصدقة .. وهذه هدية اكرمتك بها فأكل رسول الله منها هو وصحبه .. وهكذا صدقت الثانية ..

دليل ثالث فى بقيع الغرقد :

جئت رسول الله فى مقبرة أهل المدينة فى جنازة رجل من أصحابه وهو جالس . سلمت عليه استدرت أنظر الى ظهره لعلى أرى الخاتم الذى وصفه لى صاحبى . فشجعنى . نظرت الى الخاتم فعرفته .. اكببت عليه أقبله وابكى .. أقبله وابكى ..

اخيرا تحقق الأمل بعد طول معاناة .. واسلمت على يديه ..

« اعينوا اخاكم » ..
ما قاله الرسول للمسلمين ليفتدوا سلمان

ملحوظة الختــام :

اعان رسول الله والصحابة سلمان الفارسى حتى صار حرا . فشهد الخندق .. واستمر قويا فى الاسلام ..

مجلة الهلال اغسطس ١٩٧٨

الكافور لا ينبت فى الصحراء

جلس العجوز على كرسى خشبى أمام دكانه الصغير ، أرض الطريق مبللة بالماء . سيل المارة المتدفق لا يتوقف . حركة السيارات المندفعة لا تهدأ . تلفت الى الوراء الى داخل المحل .. رأى البضائع مكدسة وسط المحل بلا نظام .. علب أطعمة محفوظة ، أكياس معبأة ، صفائح مغلقة .. كل الأرفف أخلاها من أحمالها . لم يشتر بضائع جديدة ..

مال بجذعه للأمام . استراح بذقنه على يده متطلعا الى اليسار .. تجمع المارة والباعة ، ملأوا فراغ الطريق . انتصبت المبانى ، تراصت ، تراجعت الى الوراء أمتارا عديدة على متداد جانب الطريق الذى يقع فيه دكانه . فجأة تراءى له دكانه كشىء شاذ فى الطريق يجب استئصالة وبتره ، حتى يستقيم اتساع الطريق . أفحز الألم فى أعماقه المعذبة ..

حياه أحد المارة . رد التحية بلا حياة . عادت نظراته الشاردة ترتطم بالحجارة المكومة قرب دكانه ، أحجار بيضاء ضخمة ، يرصفون بها الطريق .. **وسط الرمال الصفراء ، مع الزواحف الهاربة ، بين الأشواك المتناثرة ، نفس الأحجار الضخمة**

بنوا منها المقبرة . حوائط مرتفعة ، صبار نامى ، مفتوحة دون باب .. وغدا يصير مكان دكانة جزءا يدوسه المارة بأقدامهم الثقيلة ، فيضيع ذكره مع الزمن .

– بابا .. بابا ..

انتبه لابنه عبده يناديه .. ابنه طفل صغير .. الشمس **تضرب** فى الطريق . الحر يلهب العباد . الوقت وقت الرحيل . نهض مستندا الى كتف الصغير . اخذه تحت ذراعه ، جاذبا الكرسى بيده الأخرى . أغلق المحل . استدار صامتا يحملق فى الطريق الواسع ، الطويل .. **يوما حين جاء . كانت كل المنطقة ارضا جرداء . لا يعكر صفوها الا عددا محدودا من البيوت ، متناثرة فى اماكن متفرقة . من بينها البيت الذى اشترى فيه دكانه الصغير .**

عبده يجذبه ، يدعوه للمسير ، تحرك خطوة .. **هنا وجدت شجرة كافور ضخمة ، تتعملق شامخة فى صمت مهيب . لم اعرف ابدا من كان يرويها ، او كيف تضخمت بشكلها الأخير ..**

يعود عبده يدعوه للمسير ، انقاد الطفل بلا ارادة .. **ظل الشجرة يراود خياله باوراقها الرمحية الخضراء . كان ساقها فى ضخامة خمسة رجال . تتفرع ، تتضرع اغصانها مبتهلة الى السماء .. بها حياة مثلنا ، وعمر كاعمارنا .. من قبل لم يعرف احدا من زرعها . والآن نسى الكل وجودها ..**

– بابا .. ماما بتقول لك .. اشتر كيلو لحمة ..

أومأ للابن الصغير . ربت على كتفه بحنان كبير .. **تذمر الابن الأكبر : يا بابا المشكلة لازم نحلها .. تفتكر ممكن اقعد دون زواج .. طول عمرى ؟ !**

وصلا الى محل الجزار . توقفا يتكالب عليه خلق كثيرون . النـاس يتحركون يتزاحمون كيوم الحشر ، لا تعـرف من أين جاءوا ، أو أين يذهبون . العجل المذبوح معلق بخطاف سميك ، الدم القانى على الرقبة يسيل .. **قال بناء المقابر : أنت عارف الأحوال .. لا شيء رخيص .. حتى الموت يكلف ! .**

– كيلو مشفى يا عم متولى ..

لف الرجل له اللحم . أعطاه الثمن . سحب العجوز عبده من يده ، مضيا عبر الطريق محل الجزارة جديد ، فى بيت جديد ، دكانى قديم فى مسكن قديم .. **منذ أيام بعثوا لى انذارا باخـلاء المحل استعدادا لهدمه ، حتى تبدأ أعمال الرصف والتمهيد ..**

تعلق بصره باحدى شجيرات الزينة الهزيلة ، التى يغص بها الميـدان الجديد .. **أمام دكانى الصغير عاشت شـجرة كافور ضخمة .. أحيانا فى الصباح الباكر كنت ألمح تألق الندى على أوراقها الزاهية ، الخضراء . ألمح طرب العصافير المرح . أتنسم أريجها العذب . استبشر بمولد اليوم الجديد . يجيش صدرى بالايمان ، فاستفتح يومى متفائلا : بسم الله .. يا فتاح يا عليم .. يا رزاق يا كريم ..**

يعطى ابنـه اللحم . يمشى منكس الراس .. **قـال الابن الأكبر :يا بابا .. نسايبى طلبوا منى الحـل .. لأنهم صـبروا كثيرا ..**

أين الحل ؟ .. **عندما تفجرت الاشاعة فى الحى ، سيوسعون الشارع فيهدمون البيوت القديمة على الجانبين . هرول الجميع الى النائب المحترم . يطالبونه برد القضـاء ، وحل المشـكلة .. طمأننا المحترم .. بعد سنوات من القلق ، بداوا الهدم ..**

ينصت لصفير القطار الحاد ، المتقطع ، لعله الآن يتقدم على مهل . يدخل المحطة يتوقف لحظات ، ليستمر بعدها فى رحلته المرسومة .. **فى ليالى كثيرة ، كنت أهوى الانصات لصفير القطارات ، يلذ لى أن أحدد مواعيدها ، تراودنى أمنية لا تتحقق.. أن أرحل الى بعيد ، الى قريتى التى كدت أنساها ، ولم أعد أعرف منها الا اسماء أنحائها القديمة ..**

تساءل الصغير : بابا .. هنرجع البيت ..

قاطعه هازا راسه مرات .. رجعت البيوت الجديدة للوراء **امتارا ..** بقى بيت دكانى كحاجز على جانب الطريق ، فحكموا عليه بالأعدام وحددوا موعدا للتنفيذ .. **حاول بناء المقابر بذل محاولة للاقناع : ضرورى تدفع الفلوس .. حتى نبنى الحوائط .. ونحمى المقبرة ..**

حرارة الشمس تزهق الجسد الضعيف . ما من شجرة نستظل بها من القيظ الحارق على طول الشارع الواسع .. **فى صبيحة أحد الأيام فوجىء بعربات البلدية تتوقف . هبط العمال أنزلوا الأدوات .فاجأه المعلم صاحب المقهى المجاورة ناظرا الى الطريق : عجيبة .. العمال بيقطعوا الأشجار فى اول الشارع ..**

لم أعلق بكلمة . يحملق فى شجرة الكافور ، كمن يحتضنها.. **رايت جذعها الضخم متجعدا ، مترهلا .. فجعتنى شيخوختى ..** ترى أيختلف تأثير الزمن على النبات عن الانسان ، وكلانا مخلوقات بنا سر واحد للحياة ؟ .. الشجر يقوى ، تزيد قوته . فى النهاية **تخذله** قواه أمام جبروت البشر ..

يجفف عرقه . يمسك ابنه من يده .. **قال الابن الأكبر : يا بابا .. أنا خطبت من سنتين .. المفروض ادفع المهر ..**

أجبته دون تردد : يا ابنى .. تحويشة عمرى تحت امرك .. خذ ما تريد .. والباقى للمقبرة !!

وصلا الى المنزل . أحس بالتعب .. **فى المـاضى كنت اسير مسافـات طويلة دون كلل .. اليوم ، الطريق الى البيت يهـد كيانى ، بجهد صحتى ..**

صعدا الى شقتهما .. قابلته زوجته بابتسامة شاحبة ، متداعية ، كجدران بيت قديم : أوجدت دكانا آخر ؟

طيبة تســأل عن المحــل الجديد ، كأنه شىء نجده عندما نريــده ..

يرتمى على اقرب كرسى مرهقا : ابدا .. ابدا ..

يكمل متحسرا : اليوم يقطعون تيار الكهرباء ..

فيغمر الظلام الكل . لا . سيغمر الظلام محلى وحــده .. فقط لو كانت هناك شجرة الكافور لتبركت بها ..

يعلن بأسف امرا لا يد له فيه : وبعد يومين يهدمون البيت .. ومعه دكانى الصغير ..

تلح الزوجة : وقهوة المعلم .. قال ..

تفرجت اليوم على دكان جديد . **استعرض بناء المقبرة من الداخل : افتكر أن بناءها اعجبك .. قال مالك البيت الجديد بعد ان وقفنا خارجــه : المطلوب خمسمائة .. انت عارف كل حاجة غالية ..**

الزوجة ما تزال تلح : وقهوة المعلم ..

يقاطعها متضايقا : القهوة بتكسب .. لن يتركها أبدا .. كان كلام مجاملة ..

ـ أهلا يا بابا .. لقيت دكان ثان..

نفس السؤال : فقط تغير السائل .. ابنى الأكبر كمال ، تخرج من الجامعة منذ عدة سنين .. كمن يعتذر : خلو الرجل يكلف كثيرا ..

من خلال ملامح كمال الشابه عاد الأب لماضيه . جاش صوته بحنان متدفق ، بحب كبير التمعت عياه بومضة اعتزاز : من سنين كثيرة .. جئنا .. قررنا نستقر هنا ..

الأرض قفر . المساكن قلة . نزلنا على ابن بلدنا جميل ابو سريع . فاجأنا بقرار العودة للقرية . عرض علينا شراء دكانة الصغيرة ..

التقت عينا العجوز مع الأم على نظرة مودة واتفاق .. يومها اخرجت الزوجة مصاغها بشهامة ليبيعه ..

كمن يعلن حكمه : كانت الدنيا بسيطة .. وحلوة ..

ـ يا بابا .. الدنيا تغيرت ..

اختفى الحب مع فخر الذكرى . عادت الكآبة تعلو الوجه . هز العجوز رأسه محاولا التصديق .. تغيرت الدنيا .. يجب أن افهم هذا .. الشجرة المعمرة قطعوها وهى لم تؤذهم . الدكان غدا يهدموه ، ليوسعوا الطريق .. ويقولون تغيرت الدنيا .. رجع العجوز يدافع عن زمنه : الدنيا لم تتغير أبدا .. هى كما هى .. ما تغير هو الضمير .. الضمير .. صدقنى ..

استكان كمن بذل مجهودا . ثمة صراع فى الأعماق . حسم أمره . علا صوته الخشن : الدكان دكانى الصغير .. جزء من حياتى .. كافحت سنين كثيرة حتى اقف على ساقى .. واجمع

الزبائن له .. حتى استقرت الأحوال .. فجأة يهدمون كل شيء .. كيف أستمر .. كيف ؟ !

يرنو كمال لأبيه بحنان : ادفع الخلو ..

صرخ العجوز : والفلوس.. اين الفلوس ..

القناعة شعاره . الستر مطلبه . لو كان يريد الفلوس لدانت له الدنيا .. **« والسماء رفعها ووضع الميزان . واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام » ..**

كمن يحدث نفسه : اعطوا صاحب البيت تعويضا عن ارضه التى اخذها الطريق .. وانا تركونى وسط الطريق ..

فقط لو بقيت شجرة الكافور لاجتمعنا على لقاء للشكوى حزين ..

يضرب كفا بكف مندهشا : الزبائن سألونى عن سبب ضيقى .. حكيت لهم .. نصحونى بالصبر ..

آه.. فقط لو لم يزيلوا شجرة الكافور ، لأصبحنا معا ضحايا الطريق الممهد ..

عبده يشارك . يستفسر : هتغير ..

جذبته الزوجة من يده . مغادرة الحجرة : تعلم السكوت فى حضرة الكبار ..

أجل يا زوجتى الحبيبة . اصبحنا كبارا . دب فى الشعر المشيب . تسلل الوهن الى القوى . توقف الفكر على دكان صغير ، وعندما طال عمر الشجرة مزقوها بلا تدبير ..

يقترب كمال من أبيه : يا بابا .. انا معى مائتى جنيه .. خذهم .. ظروفك أولى ..

يسكته العجوز باشارة من يده : أبدا .. أبدا .. لن آخذ شيئا .. فأمامك عمر بطوله ..

رمال صفراء . أحجار بيضاء . شــواهد صامدة . نبات الصبار فوق كل قبر . أشــواك خضراء مبعثرة فى كل ركن .. ولا توجد شجرة كافور واحدة فى كل هذه المتاهات الواسعة ..

يهمس العجوز : لكن لمــاذا ؟ .. لمــاذا ؟ !

يجيب كمـــال : حتى يوســعوا الشـــارع .. ضرورة التخطيط ..

شاركتنى شجرة الكافور معظم وقتى . آنست وحدتى . ربطتنى بقريتى البعيدة . علمتنى الصبر الجميل . بين يوم وليلة نزعوها من أمنا الأرض ، فــكان الفراغ .. ويقولون ضرورة التخطيط ..

حــل بين الأب وابنه صمت ثقيل . خبت التماعة عينــا العجوز استمرت النظرات طويلة ، ساهمة . تحرك متحاملا الى فراشه . ارتمى عليه شاعرا بعبء جسيم يجثم على صــدره . استرخى على ظهره . يحمــلق فى سقف للحجرة .. **فــراغ .. فراغ .. سماء ســوداء . أرض صفراء . جبال فى الأفــق .. « واذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » .. اغمض عينيه .. ونام .**

مجلة الهلال ــ مايــو ١٩٧٨

كان يجر العربة

طلع النهار . تجمع الصبية على ناصية الحـارة . الأطباق فى أيديهم فارغة . القروش القليلة تقبض عليها الأيدى الصغيرة بعصبية .تمددت نظراتهم عبر الطريق المتعرج تحاول البحث عن هدفهم الضال دون جدوى .. حتى صاحب المقهى انتصب على الناصية ، يتلفت بين الحين والحين الى المكان المعهود ، حيث يقف عم برعى كل صباح يملأ الجو مرحا ، ويملأ البطون فولا دسما ، أو على حد تعبيره : والله فول زبدة ..

لكن الرجل تأخر اليوم ، فمع شروق الشمس يكون عم برعى أوج نشاطه البيعى ، وحين تتوهج أشعتها ، فتغمر الحركة الحارة والحى ، تكون قدور الفول المدمس قد فرغت واسترخى عم برعى يدخن الجوزة كعادته هازئا ، وحمـاره العتيد بجوار العربة ، رأسه فى مخلاة التبن المعلقة فى رقبته ، يأكل منهـا ببطء متلذذا ..

بعض الصبية مللن طول الانتظار ، فمضـوا مترددين الى محال الفول القريبة . راقبهم صاحب المقهى مفكرا .. تأخر الرجل اليوم على غير العادة فماذا جرى له ؟ .. هل مرض فجأة ؟ .. لكنـه مازال قويا رغم الشـعيرات البيضـاء المتناثرة .. كنتف

القطن – على ذقنه النامية او الهاربة من تحت طاقيته القديمة .. أم اخره شيء مجهول ؟ .

فجاة بدا ان شيئا يتغير فى حركة الحى ، ليعود الاتساق اليه ، ويأخذ كل مكانه المعتاد استرق صاحب المقهى النظر لأول الطريق ، بينما هلل بعض الأطفال وجروا مسرعين ..

همس صاحب المقهى : اخيرا جاء .. تماما هو .. برعى وصل ..

صاح فى واحد من صبيانه : جهز الطبق يا ولد .. برعى جـاء ..

وصل الركب الصغير الى ناصية الحارة . توقف بدأ الأطفال يحملون اطباقهم التى سبق ان وضعوها على العربة أثناء مصاحبتهم لها – كالحرس ، او نتيجة الألفة الشديدة مع العربة وصاحبها وحمارها – ليتيحوا لعم برعى حرية الحركة ، فيبدأ البيع ..

ربت الرجل على الحمار بعطف . توقف ساهما . صبح على صاحب المقهى بصـــوت اجش مختنق : صباح الخير يا بويا .. صباح الخير ..

لم يقلها ضاحكا كعادته .. بدا يفك البردعة عن حماره . وضعها بجوار الحـــائط .. هز التبن فى المخلاه . وضعها امـــام الحمار ليأكل منها . وانطلقت يده بسرعة الى ظهره البارز العظام تدلكه ، كمن ينفجر باكيا ، وعينا الحمار ساكنتان ، تتعلقان بشيء مبهم غير معلوم ..

عاد الى العربة . رفع غطاء القدر الكبير . راح يزيل الريم المتكوم قرب الفوهـــة بالمغرفة النحاســـية الصفراء ، ذات اليد

الطويلة .. الافواه من حوله تتداخل حركتها ، تتقاطع اصـــواتها تتردد مطالبها : بقرشين فول والنبى .. بقرش فول يا عم .. بثلاث تعريفة بليلة ، واتوصى .. تأخرنا يا عم برعى ..

الضجة ملأ الدماغ . الأصوات تلح عليه يسمعها تناديه . تستعجله .. وهم معذورون ، فبعضهم تأخر عن عمله ، والناس انتظروه .. تناول عم برعى الطبق من العجوز الذى تأخر ، نظرة خاطفة للسماء ، استقرت على حماره الصامت ، شمر كم جلبابه .

همس بنفس صـــوته المرهق : توكلنا على الله . يا فتـــاح يا عليم ..

التفت للزبون بوجه جاد : يجعل وجهك حليب علينا ..

فقد يختلف اليوم عن الأمس ، فحتى الفجر لم نعرف للنوم طعم . وما بأيدينا الا الصبر الطويل فى انتظار المدد ، والدعـــاء المتفائل حتى يكون الخلاص ..

انهمك برعى فى البيع ، فنسى كل ما حوله الا حركة البيع الدائبة . وبعد مضى بعض الوقت ذهب يملأ العلبة ماء من المقهى كعادة كل يوم .. قال له صاحب المقهى ضاحكا : الدنيـــا بخير يا برعى .. انما انت حالك متغير ..

دون ان يلتفت اليه ، كمن ينعى نفسه : الحمار مريض ..

يفتح صنبور المـــاء . تطفح النظـــرة بالحسرة .. قضيت الليلة فى الحظيرة مع الحيوان المسكين ساهرا ، بدلا من السرير مع المراة والأولاد ..

يتساءل صاحب المقهى كمن يقنع نفسه : اذن كان الحمار سبب تأخيرك ..

امتلأت العلبة بالمـاء . فاض بعضه من جوانبها .. تجمد الحمار فى وقفته على الأرض بلا حراك ، تصلب تحت ضوء مصباح الكيروسين الخافت ، دلكت ظهره دون جدوى ..

نظر للحمار بقلق . اغلق الصنبور . افرغ بعض المـاء من العلبة . حملها الى عربة الفول صب نصف المـاء فى القدر الكبير ، راح يقلب بالمغرفة الطويلة . حتى تكتسب المياه العذبة نكهـة الفول ولونه .

نظرة اخرى للحمار المستكين .. بدا قرير النفس ، كمن هجر العالم ، واعتزل الاحياء بالأمس او حيت لامراتى بمخاوفى من حالة الحمار المريبة ، فطمأنتنى .. وفى الليل رجعت تؤكد مخاوفى ، فالبرسيم ملأ الأرض . والتبن يفيض من المخلاة ، حتى الذرة غطت ارجاء الحظيرة .. كل على حاله . كأن الحمار اعلن صوما ابديا ..

ملأ برعى العلبة مرة اخرى فى صمت . رجع العربة منكس الرأس فى أسى . عيناه فى عينى الحمار الواسعتين ، الوديعتين .. لقاء حزين يتمدد فى الأعماق يحترق باللهفة .. لكن الرجل لا يفهم، أو هو يرفض أن يفهم ، فلا جديد تناوله الحمـار فى صباحه الأليم ، ولا خبر يتوقعه من طيات المستقبل المبهمة .. فيصبح البيع هو مدفن الهموم الأخير ..

فرغت القدور بعد ساعتين . توقف البيع . مع الحمـار ثانية وجها لوجه . هز المخلاه أمامه ليشجعه على الأكل .. لكن شهيته مفقودة . تلتصق بوجهه نفس المسحة من الطيبة والبلاهة. مختلطة بمعالم خفية ــ احسها فقط ــ بعد أن فجرها المرض ..

منذ ايام كان يدب على الأرض بقوة مختالا ، ينهق بعنف ، فلا منافس كان له .. كان يكون . الماضى مع الحاضر . الذكرى مع الأحزان .. فحال الدنيا ان تستمر الحياة ليتمخض المستقبل عما سيكون ، ويطوى ما كان ..

جلس برعى على المقهى . شاردا . كانت جنازا حزينا . تناول الشاى ساخنا ، فكاد يحرقه . تناول الجوزة سارحا ، فاحترم صاحب المقهى خشوعه ، ولم يعابثه كالعادة .

نهض مسرعا . ربت على الحمار بحنان . أعد العربة للمسير بتكاسل شديد ، شجع الحمار على التحرك ببطء الى محل العلاف ، فمشى الحمار مطأطىء الراس كمن يشغله أمر المصير المجهول ، او أن الدنيا لم يعد يهمه من أمرها قليل أو كثير . تطلع برعى للمارة كدابهم ابدا مسرعين ، لا يلتفتون .. الثقل على كتفيه ، ينوء به ظهره ، يضغط على انفاسه ، يكاد يخنقه .. كل شىء فى عينيه مختلف ، لكن الطريق .. ابدا ليس هو الطريق ..

وصل دكان العلاف . رمى له الجوال البنى الفارغ . عد الثمن من قروش البيع الكثيرة **اعطاه له :** كالعادة يا عمنا .. العادة هو الفول المسقاوى او الفول الحبشى بدلا من الفول البعلى الذى ارتفع ثمنه بضراوة ، وبالتالى أصبح محرما عليه شراءه ..

ربط رقبة الجوال بدوبارة سحبها من ركن العربة . رفعه بقوة اليها . جر الحمار برفق عاود المسير .. ود فجأة لو يهبه شفاء سريعا ، ثم تكشف له خرافة أمله . فود لو يحتضن رقبته الساخنة . ويحوطها بذراعيه ، فكم من العمر عاش معه .. كم سنة ، كم شهرا . كم ازمة ؟ نزع طاقيته من رأسه . هرش

شعره . أعاد تسويته . وضع الطاقية كما كانت .. كان معه منذ زمن جنبا لجنب كانا يسيران فى الصباح . اعز رفيقان . ووطدت الأيام والمصـــائح اركان العلاقة فكنت احنو عليه واعامله برفق . وفى القليل النادر اضربه .

أرخى له الحبل . لم يرغب فى اجهاده ، فلا شك انه يقاوم متحملا آلامه بصبر وجلد .. فقط لو ينطق . لو ينوح ليفجر آلامه الجيسة .. لكن الأمنية بلا معنى . فحكم السماء صـــدر بالصمت الأبدى لحكمة مجهولة .. افلا تستحق الحـــالة كلمـــة تشجيع أو همسة امل ؟ .

تطوى العربة الطريق بلا ارادة نحو البيت . تاهت عيناه فى الحمار : لم مرض ؟ .. لم .. لم . مسح جبهته بيده . تمخط فى الطريق ولا جواب تمنحه الشمس المحرقة ، أو الجدران المتداعية والحمار لن يرد .. هز برعى راسه فى شك . وخاطر مزعج يلح عليه : السنا نولد لنحيا ونمرض ونموت ..

صمت .. دار بناظريه فى الطريق . لم يود أن يكمل ، ان تستمر خواطره السوداء ، فالنهاية لا يرغب فى تخيلها او مواجهتها، فدائما مع الحياة يوما بيوم ، ساعة بساعة ، لم يحاول ان يبدد لحظاتها فى التفكير فى الغد او حتى تخيله ، فمهما بلغت مرارته أو حلاوته سيتحمله ، بنفس الكيفية التى تقبل بها مولد ابنه الأخير محمود ، أو وفاة ابيه منذ شهور مضت ..

آخر حمار وحلاوة والنبى .. برخص التراب يا بطيخ ..

انتبه برعى على صوت بائع البطيخ الجهورى ، هفت نفسه الى اكل البطيخ ، فأوقف العربة راح يفاضـــل بين اكثر من خمس

بطيخات ، اخيرا استقر رايه على اثنتين ، فاشار للبائع الذى طلب ثلاثين قرشـا ثمنا لهمـا ، وهبط الثمن بالمساومـة الى ربع جنيه .. فوضع برعى البطيختين فى فجوة بالعربة . وسط العفش الأصفر ، وهزاللجام ، لتتحرك العربة ثانية ببطء .

نظر للبطيختين راضيا ، وكما اشـتاق للبطيخ عاودتـه رغبته ـ التى لا تتحقق ـ فى شراء جلباب جديد ، فقد تقيح جلبابه الحالى ، وبهت لونه ..

مازال برعى يسعى فى الطريق ، لكن الطرقـات الواسـعة المستقيمة ، تضيق وتتعرج ، والأزقـة تتكاثر وتتفرع ، فتهتز العربة فى سيرها ، فالأرضـية المتربة تملأها الفجوات التى تغطيها المياه الراكدة ..

تنفس بارتياح .. هنا يعاوده الأمان ، فهنا عاش ، كمـا عاش ابوه ، وهنا سيموت .. مسح على عنق الحمـار الساخن بأسى : وبنا يشفيك .. ربنا يشفيك ..

راى ولده الأكبر يلعب مع بعض الصبية ، ناداه ، اندهش لنحافته : اذا كان الدكتور البيطرى فى الوحدة .. تعال قول لى بسرعة ..

خبطه برقة على راسه مشجعا . فاندفع الولد يجرى حافى القدمين ، بينما خرجت زوجة برعى من البيت . ساعدته فى فك البردعة وحملها وادخال الحمار الى حظيرة البيت فى صمت ..

جلس برعى على حصيرة صفراء تغطى وجه الأرض فى الغرفة المجاورة للحظيرة . خلع نعليه من قدميه . أسند ظهره للحائط .

رأى زوجته تضع البطيختين تحت السير . وتحضر عدة الشاى . ثم راحت تشعل الموقد .

عاير برعى المـاء . وضعـه فى كوز له مقبض من السـلك الملفوف حول حافته . وضعه على موقد الكيروسين المشتعل . قدر كمية الشاى المناسبة فى باطن يده . قلبها فى الكوز . استرخى ثانية للحائط .. يزحف فكره الى الغرفة المجاورة حيث المريض الصامت .. فيستغفر ربـه بينما تلتفت اليه امراته متلصصـة بين فترة وأخرى . كمن تشفق عليه ..

عاد الولدلاهثا . كوب الشاى الأسود فى يد الأب . رشفه مرة لم يبتلعها توقفت فى فمه فى انتظـار الرد .. قـال الولد : الدكتور غير موجود .. يقولون خرج ..

الصبر أيها الناس ، فبالصبر تتلقى اى نبأ .. الصمت ــ أيها الولد الشقى ــ هو الغلاف المزيف لبركان عارم من الضيق .. صدر الحكم ، وما بأيدينا غير الانتظار الطويل ودعـاء بالفرج .. والمعنى اصبح يفرض نفسه .. قد يموت الحمار .. قد ..

كلا .. كلا الف مرة ، فهى اصابة عابرة ، كالرجل عندما يصيبه برد أو زكام ، وغدا يعود اقوى مما كان ..

هز رأسه ابتلع الشاى . لم يعد لمرارته طعم .. لكن الانسان قد يكون سائرا ، ويسقط فجاة ، فتكون الأخيرة .. فهل هـذا منوال الحيوان ؟ .. أولا يقربه المرض من الموت ؟ . ابدا .. لن يموت .. الحيوان يحتمل ، ويقاوم .. ولا يموت .. فلو مات .. من يحل محله ؟ .. حمار جديد .. وهم وخرافة .. تقطبت

ملامح وجهه .. من اين اشتريه فمكاسب اليوم بالكاد تسد الرمق ، واحتياجات البيت لا تنتهى .. فمن اين اشتريه ؟ :

وضع كوب الشاى .. لعل نفس الظن راود امرأته .. وتنتظر منه التصرف .. مشكلة لم تخطر من قبل . على البال .. ماذا افعل — حقيقة — لو مات الحمار ؟ ..

نهض واقفا .. ارتمى على السرير دون ان يبادل امرأته مجرد كلمة .. ما جدوى الكلام فى مثل المواقف الصعبة .. اغلب الظن انها تعرف ما يحزن ويخيف .. لكن الحمار قوى سيحتمل.. سيشفى ان شاء الله .. سيعود للعمل باذن الله .. ولن يموت ..

نهض برعى من نومه بعد ساعة . اندفع مباشرة للحظيرة . راى ولده الصغير يقدم للحمار العلف .. لكن الحمار لا يأكل منه لا يهتم أو كأنه لا يشعر بما يجرى حوله .

تقدم برعى من الحمار . تحسس رقبته الطويلة ، الساخنة، كمن يحتضنه . عانقه الحمار بعينيه الهزيلتين الواهنتين . كمن يشكو مد برعى يده ببعض العلف ، لكن الحمار لم يتحرك غادر برعى الحظيرة . غمر وجهه ببعض الماء ، فانتعش . تناول بعض الطعام ، خرج بحثا عن الطبيب البيطرى .. عرف أن الطبيب فى اجازة . ولن يعود الا فى الصباح فتهرب من الرجوع للبيت . بالالتقاء مع نفر من أصحابه على مقهى صغير . ومع الجوزة والفحم المتوهج ، جر الكلام الكلام ، فحدثهم بدوره عن حماره المريض ، كمن ينتحب .. وكان عزاؤه عدة نصائح . وعدد من الوصفات البلدية التى قد تشفى الحمار المريض ..

عاد الى البيت بعد منتصف الليل . مازال النور فى البيت

مضاء . توجس خيفة . اندفع الى الحظيرة كالمجنون رأى الحمار يترنح فى وقفته ، ثم ينبطح على الأرض السوداء .. دارت عينا الحمار ببطء ، بحثا عن صاحبه . توقفت على برعى ، تشبثت به . مد رقبته للأمام ، كمن يشكو له .

أصبح برعى مسلوب الارادة تكشفت له الحقيقة الحمار يموت .. تذكر الخروف الذى كانوا يملكونه ، عندما انبطح أرضا ، تماما كالحمار .. يومها قال البعض : اتركوه .. لكنه كان يعرف انه يموت . فسارع بذبحه .. فمن الذبيحة اليوم ؟

بعد فترة قصيرة — اخترق السكون صياح ديك .. ونباح كلب . الكل مازال على حاله .. ضوء الحداد الخافت يظلل الحظيرة . الأسرة تقف — مشدوهة — فى صمت وخشوع الطفل نام على كتف أمه يحلم بالعالم السعيد . الابصار معلقة بالحمار الممدد على الأرض فاقد الحراك ..

ألقى برعى عليه نظرة وداع أخيرة ، متحركا نحو عربة الفول ساعيا وراء رزقه . وعلى ارنبه أنفه تحجرت دمعة ساخنة . وعلى اللسان ماتت مرثية حزينة .. كان يعرف أن الحمار مات ، ولن يعود .. وان عليه الآن أن يجر العربة بنفسه ..

ثلاث دقات فى القلب المتآكل ..

« ايها القادم الجديد .. تمهل .. فهنا عجوز يعمل »

كتابة بالطباشير على جدران دكان قديم

الدقـــة الأولى :

يخرج عوض مسمارا من فمه يثبته فى قلب النعل المتآكل . تسقط عيناه على كوم الأحذيـــة القديمـــة المجاور ، فى انتظـــار الاصلاح . يتنهد . يحاول أن يرفع الشاكوش بيده لأعلى ، حتى يثبت المسمار . يشعر بالخدر يسرى فى ذراعه .. لا يستطيع أن .. يلتفت مذعورا الى ناصية المحل .. الحمد لله .. المعـلم درويش لم يرنى ، ما يزال يتسامر مع صديقه .. لو رآنى لحلت الكارثة ..

يرخى ذراعه حتى يرتاح ، ليعاود العمل بسرعة . يتناهى الى سمعه صوت المعلم الأجش المرتفع دائما ، يحاور مجالســـه « أيام زفت .. أيام قطران .. لكن ما العمل » ؟

قالت الزوجة : ابنك مسافر .. مصمم على السفر ..

يكح العجوز كحة خشنة ممدودة ، يهتز لها بدنه النحيل . يستجمع شتات نفسه فجـأة ، اثر نظرات المعلم المستفسرة .. **تعلقت به عينيهـا . تستحثه أن يتفهم ما يجرى . بطن داخـله بالصمت وفكر : ما جدوى أن أعرف .. ما جدوى أن أفهم ..**

يثبت مسمار آخر فى النعل المتهرىء ، الباهت تحت عينيه المنديتين بدموع الآلم . يحـاول أن يرفع الشـاكوش . يخيب مسعاه .. **عادت العجوز تلح : ابنـك مسـافر .. مصمم على السفر ..**

•

يتحرك متحاملا الى ماكينـة الخياطة . يجلس على كرسى مترب ، قديم . يخرج المسمارين من الحذاء يضعهما جانبا ـ يريح قدميـه على قاعدة المـاكينة السـفلى . حتى يتمـكن من تشغيلها .. تتحسس يده ثقب الابرة . الحمد لله الخيط فى محله، والا لارهقته عملية لضم الابرة كالعادة . قلب الحذاء فى يده . هنا موطن الداء ، يحتـاج تثبيت اللسـان فى مكانـه .. فقط لو يمكن .. **وسط مشاجرة صاخبة ، التقط صوت اخيه . كان لسانه يفرقع : الولد ابن الكلب .. يبيع الجرائد لحسابه .. بعد ما أربيه .. يعملها !!**

تتلمس يده موضع خياطة اللسان ، كان الجلد متآكلا بشدة يخمن أن اصلاح اللسان سبق اجراءه عدة مرات ، لاشـك عمره سنتين على الأقل ، وما يزال صالحا للاستعمال ، **اقترب أخيـه منه . اقتنع بضخامة اخيه المفرطة . برد الأخ فعلته : نصحته كثيرا .. بلا فائدة .. لابد من علاج آخر .. يجب تاديبه ..**

يثبت اللسان فى مكانه من الحذاء . يضعهما تحت الابرة . يضغط بقدميــه . تتحرك المـاكينة .. **رجته الزوجـة : فـكر يا عوض .. لازم تشجع ابنك ..**

يكرر خياطة اللسان عدة مرات . يخرجه من المـاكينة . يقطع الخيط بسكين حادة يبلل مكان الخياطة بلسانه كالعـادة . يمسحه بباطن يده . ينهض . يتـكوم فى مكانه القـديم . يقلب الحذاء مرة أخرى .. **قالت الزوجة : ابنك بيقول عنده فرصـة ممتازة .. هيكسب منها ..**

يثبت المسمار .. **هاج اخيه : ودينى لاربيه .. هيعمل رجل على .. ابدا ..**

يتحرك اصبعه على الحذاء . الحذاء قديم . لمـاذا يحملونه اكثر مما يحتمـل ؟ الا يعى صاحبـه الحقيقـة ؟ . يمســك بالشاكوش .. انا ايضـا ــ كبت كحة كادت تباغتـه ــ تحملت كثيرا . يضغط على ناجذيه بعنف . يكتشف أن المعلم درويش يراقبه . يتحامل . يرفع ذراعه بالشاكوش بقوة الخوف . يسقطه على المسمار .. يتنهد .. الحمد لله .. تمت الدقة الأولى ..

ملحوظة غير هامة :

« بعض النـاس يلبسون الحذاء مرات معدودة ، وآخرون يلبســون الحـذاء حتى يبلى ، فيصلحونه . ويعيدون اصلاحه مرات ومرات . حتى يتغير شكله ، ولا يعود يصلح لشىء فيستغنون عنه ، بكل مرارة الفراق ، بعد طول معاشرة » .

من مأثورات ماسح أحذية

الدقــة الثانيــة :

يندفع شاب الى داخل الدكان . يجلس بجوار عوض . يخلع فردة الحذاء اليمنى . كمن تنبه الى مراقبة عوض . يبتسم باعتذار : مساء الخير

يرفع الحذاء . يشير الى جانبه : هذا الجزء .. يحتاج .. خياطة ..

يتنفس عوض بصعوبة . يمسك الحذاء .. **نصح ابنه : يجب أن تستقر على عمل واحد ..**

رد الابن ببساطة : انى ابحث .. عن عمل .. يناسبنى ..

يشخط المعلم درويش : ما المطلوب يا عوض ..

بانكسار : خياطة فردة ..

يتدخل الشاب : والفردة الثانية ايضا ..

يتنــاول الفردة الثانيــة . ينظر الى المعــلم الحــانق .. **صــاح الأخ مستنــكرا .. انت طيب يا عــوض افســدت ابنك بتدليله .. لكن ابنى .. عمرى ما أفرط فيه .. هاربيه كمــا أريــد ..**

يتساءل المعلم : متى تريده

يرجوه الشاب : الآن .. ليس معى غيره ..

يجذب المعلم نفسا من الجوزة : كلام غير معقول .. الكل حالا .. الكل مستعجل ..

ينظر لزميله : الدنيا بخير يا اخواتى ..

يصرخ المعلم : اسمع يا عوض .. لازم نبطل الخياطة المفرد .. همها أكثر من ثمنها ..

يضع ساقا على الأخرى . يجذب نفسا آخرا من الجوزة : أنا دفعت فى اصلاحها تسعة جنيه من دم قلبى ..

يتطلع عوض اليه صامتا .. **قال لابنه : اخواتك كلهم تركونى .. انت الباقى .. اقعد معى .. اعطيك خبايا صناعة الأحذية .. صدقنى ..**

رد الابن بآسى : يا ريت يابا .. كان ممكن .. يا ريت ..

ينهض عوض : يتحرك خطوة . يستند على ماكينة الخياطة . يملأ الغبار أنفه . يشعر بمقدم كحة . يجلس بسرعة ، مغلقا شفتيه . تجتاحه نوبة كحة شديدة . يتلوى يتكور . يتمدد . وما من سند .. **جذبه الأخ غاضبا : لا تدافع عن ابنى .. ربيته .. شربته الصنعة .. وبعدها يستغلنى ..**

يمسح عينيه بظهر يده . هل يبكى ؟ .. يتفحص الشاب : ثمانية صاغ للخياطة يا ابنى .. يهز الشاب رأسه موافقا . يتحسس عوض خيط الابرة .. **صارحه اخيه : لازم اربيه .. فاكر انه يقدر يشتغل .. ويبلع المكسب .. او يشتغل بمزاجه .. نهاره اسود ..**

يضغط بقدميه . تتحرك الماكينة .. **كررت الزوجة محاولتها : هتتنكر لابنك .. سنين مرت كالحلم .. تذكر .. كنت تحبه .**

يتذكر .. **فرحة المولد .. قمة الرضى الالهى على العبد المسكين ، عندما كافاته السماء بولد ، احتل من القلب مكان**

الصدارة .. فرحة متجددة على الدوام ، فى الصباح ، فى المساء ، عند العمل والراحة ..

ينهى فردة الحذاء الأولى . يتناول الأخرى . يضعها تحت الابرة .. **منذ بدا يحبو اطلقت له العنان فى الدكان ، ليكون بجوارى .. تحت بصرى : خذ كراملة .. يا حبيبى .. خذ من بابا ..**

يخيط الثانية . يبلل زوج الحذاء بلعابه . يقدمهما للشاب.. يأخذهما فرحا .. **قال الابن مبتسما . مستقبلى هنـاك يابا .. انا مقتنع بالسفر ..**

يهبه الشاب قرشا . ينهره المعلم : اعمل لك همه يا عوض.. لا تتلكع ..

يضع القرش بجيبه ساهما . يمسك الحذاء الأول يثبت فى نعله مسمارا جديدا . يرفع الشاكوش يسقطه .. يا للأسف . طاشت الدقة الثانية ..

تحفظ جانبى :

« اذا رفعت شاكوشا .. تريث .. حتى تكون دقتك فى مكانها الصحيح » !

نصيحة من صانع عجوز

الدقـة الثالثـة :

يرخى عرض يديه على ركبتيه . يمدد ساقيه . تتجول عينيه بحثا عن شىء غير معلوم .. صورة بطل فى رفع الأثقـال .

منزوعة من مجلة قديمة .. تتدلى على الحـائط باهمال . صورة المعلم درويش فى بروازها الباهت تعلوها الاتربة .. ينقل نظراته ببطء بين الصورتين . همس : الحمد لله على ما يصيبنا ..

فجعه اخيه بهيئته الفوضوية : عوض .. قول لى يا عوض .. ما العمل ؟ .. الولد هرب .. ابنى هرب يا عوض .. تسقط عينيه على عدد من القوالب الخشبية المعدة لصناعة الأحذية .. يحملق فى القوالب مبهورا .. يتذكر ..

حـوار منسى :

قال الأب بهدوء : خلقنا الله .. حتى تكون لكل منا حياته .. انظر .. احذيـة كثيرة جميلة .. تصـنع من نفس القالب .. المفروض ان تكون مثلى .. رد الابن باصرار : يا ابى .. قالبانا مختلفان .. ما يصلح لك .. قد لا يصلح لى ..

يمد يده . يتناول الأحذية القريبة . أربعة أزواج عليه ان ينتهى منها قبل المغادرة .. لو يأتى القهوجى ، قد يحضر شايا يدفئه .. **اقتربت منه الزوجة بعد نوبة كحة عنيفة فى الصباح : « يجب ان تريح نفسـك » . مـلأ عينيهـا بعينيه : « ومن اين ناكل » ؟ ؟**

تنحنحت بعد لحظة صمت : لكنك فى حاجة للراحة

ابتسم ببراءة : ومن اين ناكل ؟ !

يتناهى اليه صحب المعلم .. **لهث اخيه : عوض .. عوض ..**

ما العمل يا عوض ؟

يقلب الحذاء .. بالعمل تبهت العموم . تتبخر . تندثر .. يثبت مسمارا فى النعل .. يرفع الشاكوش . يسقطه .. اى حظ غريب .. كيف لا استطيع التحكم فى يدى ؟ .. كيف يبقى المسمار صامدا على النعل المتآكل ، كشاهد على الفشل .. كيف ؟ !

« اذا طاشت دقات الشاكوش عدة مرات .. لا تتسرع فى الحكم فكر .. وابحث عن السبب » .

من يوميات صانع معذب

مجلة الهلال – فبراير ١٩٧٦

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع ٨٥/٤١٩٢

الترقيم الدولى × ٦٦٤ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب